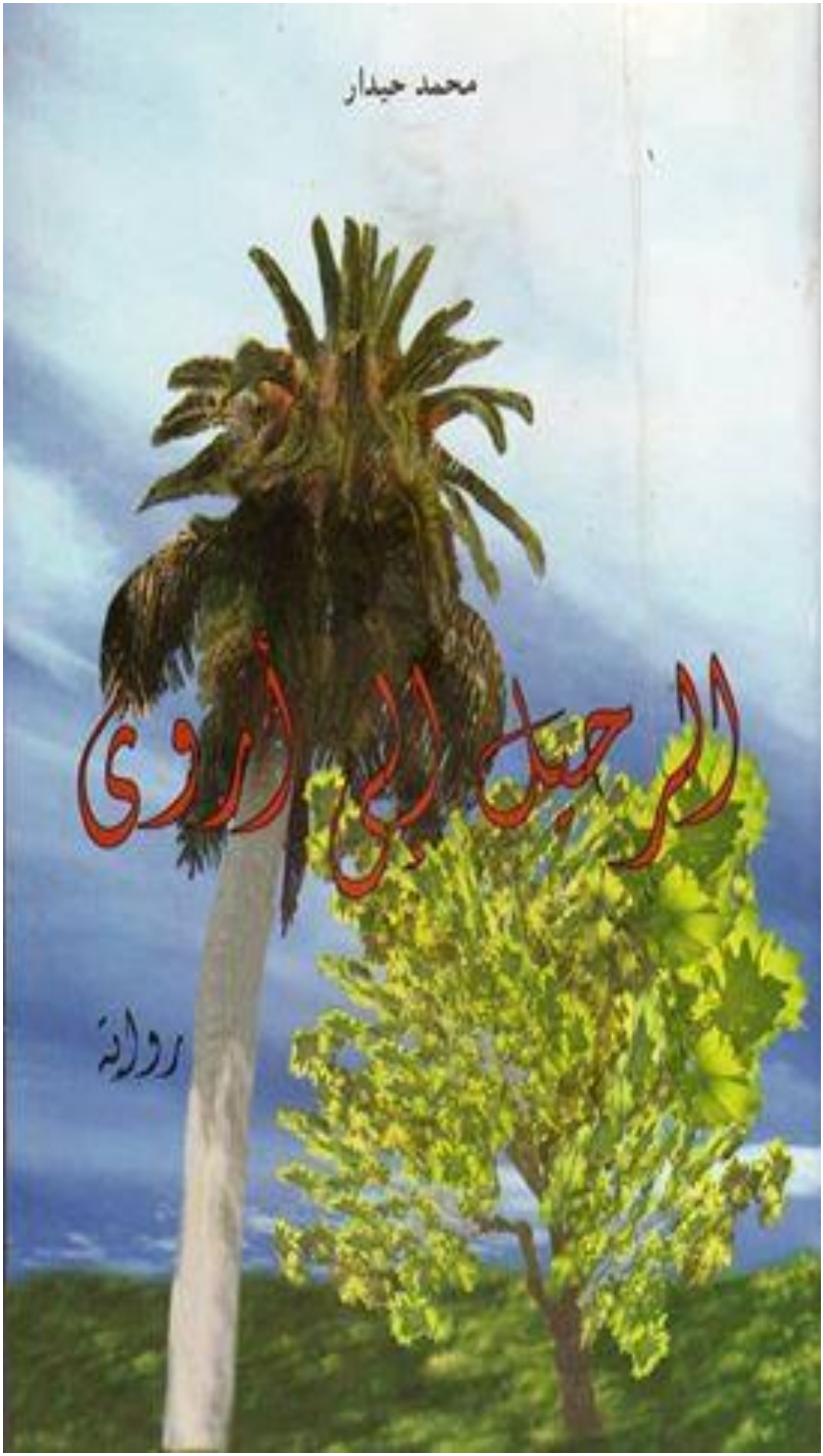
محمد حيدار
الرجيل أبي أروى
رواية

محمد حيدار

الرحيل إلى "أروى"[*]

روايـــــــة

التاريخ كعلم القــانون

لا يسكت إلا حين يريد

لغــيـــــره أن يتكلّـــــم.

الكاتب.

لـــــوحـــــة أولـــــــى

الفصل الأول

"رسالة الواقدي

في دوران الأرض":

الفصـــل الأول:

رسالـــة الواقـــدي فـــي دوران الأرض:

في حلقاته المدائحية يغتبق متخثر الثواني، يشرق بريقه في عتمة الأهازيج الصاخبة، يمتص صداء الدرهم في نهم فطري، في لهاث يتلقف آخر الأطوار، يقتنص أطيافا أخذت تتوارى تباعا في صيرورة خلفية، يتناوشه الجمع:

ـ المدّاح. المدّاح(1).

جانبا يتزوى، يستفتي الرواة القدامى، يستنفذ العزف الذي يصطحب الحكاية دائما، يتضور الدف، يفتتح أجواء مسيجة بالصمت، بالوهم، بالانكفاء، في خطاه المرتجفة يتعثر الدف، يطوّقه العازفان ليبحر أكثر.

عن النظر يمتنع، يغفو نحو الفائت قريبا من زئبقية الأزمنة المطعونة، يحادث انشطاريات العدم، يتلمس بكلتا يديه ارتجاعات النقع بين ركام الضباب الوافد.

ـ أربعـــة. أربعـــة.

في مسكنة يمد يده، لعبة يومية، سليقة معتادة يمقتها أحيانا، يحاصره صرير القطع النقدية، يتضور لقرقعة الأكياس، يبتـزه نداء خلفي.

ـ نعطيـــك عشـرة، عشـرة.

في جذل طفل صفق بيديه، وارتمى في حركة صوفية يتقن تواترها:

ـ أصحاب النبي. أضـرب. أضـرب.

يتشرّب الأفق، مثقلا كان بأعاصير الخريف، وأذناه تتحسسان منابع الصرير في مهاوي المنقرض، انفتحت الحلقة في ارتداديات ماسحة، أنشده الأطفال، غمغم عجوز في نهايات الصف الأمامي، اتسع شاربا " القصاب"(2) ليرسما نصف دائرة معقوصة إلى الأسفل، أعلن الدف عن حضوره أكثر من ذي قبل، استعاد الأنظار بنوبات إيقاعية أخذة في الإسراع.

المدّاح، رمق الأفق بدوره ثانية على عجل، أشار بيمناه الماسكة بخيزران يزهو بها دائما، تأوبه الحنين إلى الفائت، تعالى هيجان الجمع، انتظر.

---

(1) ـ المدّاح: هو الـقوّال ـ بقاف غير معطشة وواو مشددة، يعقد حلقات في الأسواق والأعياد الموسمية فيروي المغازي والقصص، ويرتجل أشعارا غالبا ما تتخلل تلك القصص.

(2)– القصّاب": عازف القصبة أي الناي البدوي التقليدي.

ـ قصة ولد العجوز.

ـ بل، الإمام "علي" وراس الغول.

و قال العجوز نابرا في وهن:

ـ الملكة شميسة وابن الأحمر.

و انفجرت أطراف الحلقة في ضحك مدو، ورمقه الأطفال في إجفال ساخر فأعاد عينه إلى الأرض دون أن يضيف، انتظر الجميع شفتي المدّاح المزمومتين، فلم تتحركا، غير أن يده اليمنى أومأت بخفة إلى (القصاب) إماءة خفت بعدها صوت القصبة دون أن يفقد اتصاله بالنغم، تباعدت دقات الدف دون أن تخلّ بالإيقاع، و لوّح بخيزرانه ليمعن الجمع في السكوت.

ـ سأقص عليكم قصة أروى التهارتية.

سكت الجميع فعلا، من تكون (أروى) ؟ تساءل طفل في السادسة، وتلعثم العجوز.

ـ قد تكون جنيّة يا ولدي؟

وقال طالب يحمل محفظته في تعب:

ـ إنها من عشيقات الجاهلية.

وغامر طفل أخر بسؤال:

ـ من تكون "أروى" هذه، يا سيدي؟!

وتضاحك المدّاح في إشفاق دون أن يهزّ خيزرانه كما توقع الطفل.

ـ جدّتك أيها الصغير ألا تعرفها؟

وأردف دون أن يباغته أحد بسؤال:

ـ عجبا لا يعرفها! وماذا تقرأ إذن؟

انداحت القصبة في تداعيات فطرية، فأبحرت تلقاء اللامرئي تتعاطى التحديق فيه، وظن الجميع أن المدّاح سوف يواكب القصبة بصوته المجلجل غير أنه زفر:

ـ "أروى" لعبة تمجّها صبايا الدرب المترع بالظماء.

واصطحب المدّاح قصباه، فأثارت كلماته سكونا ثقيـــــلا:

(حين أومأ ابن السمح بالجلوس، شارف الفصل المقروء نهايته، اهتدت أواخر الأحرف إلى مخارجها، واسترقت المناخر رائحة "سعد" تطوف عبر أبراج الحراسة المنخورة.

الوجوه الخفيفة اللمم تتموج نظراتها في إجفال، و لى المشهد ينعقد لونان، هروبي سادر مثقل برائحة العودة، و انشطاري دافع للرافض في وهن.

الانشداه الجمعي ينعقد يفرز صخبا قابلا للحفظ، لثاني مرة جليد التخوم المشرقية ينصاع للتبخر.

الاحتمال الأوسط بالضرورة مجهض، والغرامة السلطوية حية خرافية الحجم تستلقي على امتداد الشمس، كان ذيلها بغرناطة، وأحد لسانيها بجبال الأفغان، إنها تلتهم يخضور الأعشاب المنحنية الأعناق، تمتص رحيق الأدغال المخضّرة، وأيتام الهجرة المعاكسة يغادرون المضيق حفاة، بعد حصار بني الأحمر وتسليم أخر السيوف.

حقوق الإفتاء الذرائعي كانت توزع بالمجان، في زوايا الأنهج الدمشقية النازحة الحضور،

وعبد الرحمن، ما أن بلغ أقاصي التخوم حتى عاودته نوباته، أضمر الصعود، والصعود نوبة مزمنة، وتهربت نحو مشاعره الآفاق الأخرى الملحقة "بالنيل"، توسّده، أخذ الاهتزاز يركب المتواتر من الولاء المركزي، وحاسة النظر تنبو عن الماثل، وخلف المرفأ الأخير يتكوّم بهرج الانتماء البكر، يداعب الموج ومضانه النافذ.

دفترك المنزلي يعتصر الطفولة، أودعته جرابك الجلدي اللامع، و سؤال النص الحربي يتضوّر وتذكرت "المثنّى بن حارثة" حين عُرض على التحليل لرصد عارض الرفض زمن انتظار المدد في واقعة استنزاف (كسرى).

فرقتك الانتحارية لا تنتسب للقواعد الأولى، ترفض تحويل القوافل نحو الشام، وعيناك الفارسيتان ترسمان خيطا ينكص تلقاء القَبل، يتبطن إنكار تبني هدنة في "القادسية".

و "ابن السمح" في نظرك، بداية إنجاب كهل، والإنجاب في مواسم الرحيل لا يجتر عن إخصاب عادة، الخطبة المذّيلة تبرعم، والسيف اليماني يتوسط ديوان الإنشاء دون أن يستكمل مواصفات الشعار الرسمي.

- و "الجعدي" يا عبد الرحمن الوافد؟

سألك أمير متقاعد كان يبكي قتلى الطرفين، الذيل وحده مصدر السم الزعاف، أما الناب فعملة محل عفو أحيانا، استقرأت دموع الرجل المتقاعد، وعفوت عن التحديق في أوراقه لسابقات تحفظها، و شرق بريقه دون أن يعاود النظر إليك.

النظرة المتعبة تمتص المسافات، تجتثّ تقاطيع الموغل في الاسترسال نحو الكلمة/الفعل، في ترو مستعجل تضع خاتمك بدون تصديق، وأنت لا تزال تبحلق في لحي موخوطة غير مخضّبة.

تستلم قرطاسا حيادي التوقيع، وتقفو ضحالة الاستنزاف في كفّ العرّاف "سطيح".

طلائع "ابن الأشعث" تعاود الإدلاج، تتلمس وهن النبض الهروبي المزاج في غفوة الغسق، والصهيل مشبع بسمفونية ولاء مبكر، و قبيل محطة الإنذار يتلولب الحنو في توعك.

ـ قيل إنهم يطلبون رأس "ابن السمح"!

في أخاديد الجبين تتهاوى أشرعة إبحار نحو الخلف، وأمام علامات الصيرورة المرصودة، تأخذ الشمس نفسا مؤقتا لتستسيغ الفرار.

البيان الخام يسبح في الطحلب، يراقص أطفال السرو بضاحية قبر قيرواني مجهول، ناطق، و في تلونات الأفق إبداع غير جغرافي، و أسير " القادسية " يرفض الإدلاء بأخر الأسماء المشبوهة.

الصمت أمامك يعشوشب في زوايا الخريطة، وجلبة على أعتاب البهو الخلفي تُحدث في الآذان مخاضا، وعدوى مرض ارتدادي تشتق أعراضَه، وفي العتمة تسمع قرقعات سلاح متقطعة.

غادرت ديوان الإنشاء تتفقد جيوبا مهمّشة الهوية، قبل أن تدين بانسحاب معكوس.

ـ حُصرت طرابلس؟!

ـ وقُتل معظم أطفالها ياسيدي.

و" طرابلس"، كعبة حصار على مدار الفلك، وحين طُعن "ابن السمح" أحال عليك الوصية في تلعثم محتمل.

ـ كانت وجهته "الفرات" دائما.

لاحظ كاتب سرّك، فزجرته على غير عادة منك، وأغلقت عليك بابك، كنت تنتظر، تستأذن نفسك في البدء، وأرتدّ بك التخمين.

منذ كم سنة أقبلت جنديا، تتعثر بك الصفوف المثقلة بالحديد في غياهب الأنحاء، وصدارك الخرساني الأضلاع يفرز الإغراء بالقفز، غادرت روايات "الواقدي"، وانتفض بتعلاتك الوثوب كبقايا عهود الإملاء، وحادثك موظف العقيدة في أطروحات التلفيق كمدخل ضروري للرفض، استنطقت البراعم في آماسي الرحيل، انتحيت السكينة تقارعها هُجُر السموم، وأقفل بك الصياح صوب أخر القلاع المترجفة.

تختلي إلى نفسك الآن، تحادثها في وداعة طفل، بزاوية قبتك المنصوبة داخل تلاع الملجأ الأخير، لكم شربتَ وحل النبع، وحدّثك "الطبري" عن حفل اختراع المقصلة في غرة ذي الحجة، من عام الانتجاع الأكبر.

ـ عودوا إلى ما كنتم عليه قبل البَعد.

بكيت "جابرا" في سرك كما لم تبك أباك في القادسية، وألح عليك الخليفة فانزويت، ميمما تلقاء البَعد والبَعد واريته التراب.

في لحظات العبور الأولى تتلو فصولا ممحاة التقاسيم، تلتمس لجوءا داخل حصار ما، و لوحك السابح يكتم نوتات "زرداشتية" الوضع، كنت تحجّر طريقا مزدوجا لا يطأه الهدير، وكنت الجسر فصرت الميناء، أضربت عن السمع أشواطا إلى أن صرته، كنت تحترق، و بأقاصي الوادي يسائلك العياء عن مواكب الاقتحام الكبرى، وفي حروب الولاء أضعت مفتاح الجزيرة الأولى، ونقاط الجمرك يغتصبها الطوفان، و كليات "الواقدي" تمانع العودة في آوان التهجد المراهق.

قُتل ابن السمح، والقتل في نظرك تصادم فتاوى، التمست مخلفات نعلك الشامي وزحزحك الإشراق في هُجُر العام العصيب، فأقلعت يلتهمك الصدى الخلفي.

وبضفتي "ميناس" أخذتْ تبرعم تهاجي الأسطورة الثانية، وخلفك أومأ الضباب، وعلى جانبك أزيز "صفرية" "سجلماسة" السفعاوي الهوامش، ومولاك الحبشي يبتلع مرثاة "عمران بن حطان" في واقعة الخلع الكبرى.

ارتقيت صخرة ميناس، تتشوّف متاهات الثغر الإسباني الغد، تتغزل ببحر الروم قبل بياضه، و شدتك مواكب الألواح تمتهن القنوط.

ـ أعلنــوها.

هدرتَ قرب الوادي، فبلغ صداك "دمشق"، وأصاخ ملحق السفارة دون أن ينبس، ردتها ثانية في غضب بركاني، وأعدت هيكلك إلى المقعد الجندلي السابح في الرمال، عائما كنت بنظرك في أعماق حدقات فرق التجاوز السريع.

الرد حمّلته الحسم، والحسم مغامرة دائما، والمغامرة تحد ذاتي أولا، وفي ليالي الانتجاع الكبرى تنفس الوادي رئة مشروخة، والأرض فقدت كرويتها في نـهايات لا تقول بالدقة، وعلى أعتاب "تهارت" المشروع، يتهامس التردد في لعثمة مبحوحة.

حين غادرت موقعك على أنغام الوادي، كان "ميسرة" يستنسخ العود/ البدء، و لى انفراد عاد إليك محمّلا بغضبة الخليفة، وأبلغك إهدار دمك شفويا، فابتسمت في تلمّظ محترفي الجوء االسياسي، و استعرضت وجوه الوفد المرافق الذي اتهمه مستشار الخليفة بالتشويش، والمساس بنظام الحكم، و شق عصا الطاعة، تنهدك ينقذف طواعية عبر مسارب الدماء، تلقاء أدغال صدر موجع بالقَبل، في زمن البَعد اللامرئي، أحسست أنه يتسلل منفلتا صوب عصب الدماغ المتوعك، ومؤاشراتك ترفض الجاهز من الحلول.

ـ عودوا إلى ما كنتم عليه قبل البَعد.

وكبير مؤرخي أبناء الملوك حدثنا عن استئناف بيان مروان بن الحكم الذي ألغى كل ماتلاه.

بلغتك أخر الأخبار فأقعدتك، وعلى أثيريات متسربة تطوّفت في مخازن الأمس، حيث أبحرت من القادسية تصطحب كمية محدودة من عصير العباب، وجوازا لما يُخضّب بعد بملامح الانتساب. دعوت مجلس الشورى، ولأول مرة صارت في نظرك الجزيرة جزيرتين، و تشممت أخبار "صقر قريش" حين نصّب نفسه في أمسية اليوم الثاني على الجزيرة التوأم، وبارك السجلماسي تتويجه، وأنتظرت، كنت تحسن فلسفة الانتظار يا عبد الرحمن.

ألوان سمنجونية التهاويل قرأتها في عيون "أروى"، تشير إلى اصطدام الأنهار الغاضبة في نهايات الخريف الثاني، وعلى تساريحها المجدولة يتأوه التظني.

ــ أروى؟

ناديتها في ترحاب تحسنه، و"أروى" نسق فلسفي في تداعيات المد الحذر، نقطة تلاق بين هروبيات الحدس الناشز، حرف تتقاسمه لغتان، واستشرفت دموعا مهرّبة يستوردها رائد الهجين في عميق السحر، ولتخدير الهمس يُتخذ "ابن حكيم" علامة إشهار رافض للمقايضة الحرة.

مع مشارف الغسق سترحلين، قبل أن يضرب الصقيع المجلوب من بوابة الجزيرة المسعورة، حيث يحتضر أخر الرواة، شاخصة تلقاء جنوب "المغرب"، تفلسفين فوارق الكلم في مناظرات اللهاث المجهول، المشكل.

تلحظين أن قائد الحرس لا يهز رأسه مسبقا على طريقة الكليات الحربية، سادرة كنت تقتنصين فلتات التأوه في همهمات خيول "الظهرة"، وشقيقك أبو الأفلح يناولك خطابا غير رسمي، مزخرف الديباجة، كنت تشاطرينه حذره، في وجوم فضضت الكتاب لتأقرئي في سرك:

((متعب بالنظر إليك من بعيد يا أروى))

وبحاشيته:(كوني تقاطع قصيدتين، مذهبين، دارين، يا أروى)

وسألك شقيقك أبو الأفلح عم تنوين، وقد أعدت للكتاب طيه، فزفرت:

ـ وماذا يريد ولي عهد سجلماسة؟!

ـ يريدك زوجة.

وقهقهت في تصابيك المعهود:

ـ مغازلة رسمية إذن؟! ألا تراها كذلك؟!

ـ كلا. كلا إنه مهذب وخجول.

ـ وأبوه ؟! مهذب وخجول بدوره؟!

أدرك المكر في عينيك، فأكد لك:

ـ أنه صفري، مستقل عن قيادة "النهروان".

وتزوّيت في مكانك تلفّك تنهيدتك:

ـ بالعودة إلى "عمران" متعبة.

ـ قد يهيم هو الأخر بأشعار "ابن حطان" يا أروى؟

واستبعدت ذلك، (فعمران) أنة في أسفار التجلي السابق للصوت، أوصته كبرى بنات الخليفة الدمشقي بتجهيز كاميراه غداة موسم الحج، فألف ((برقية الاعتذار الكبرى))، عمران تقرفه الأعتاب الموصلة للدفء، و لذلك عاش لاجئا.

تلملمين أوراقك، وتصلّين نافلتك اليومية، ويسائلك النهر خلسة عن حياديات الوداع، و السباحة ضد الشبهة، و مستحضرات الوجوم يمازجها مذاق الأعشاب الواقعة تحت الإقامة.

ببادية النهر تخلعين نعليك، تتطيرين من الأصوات، أيضا تبكين أحيانا يا أميرة النهر العلوي، المداد يسترق أنظارك مرة أخرى، تعاودين قراءة الكتاب خلسة، ومجلس النصيحة يحترف التروّي، و تبسمين خفية، والحبشي بجوارك يتضرع.

في ثغرك الفردوسي التوحش تشرق خامات الحلم المجتر، عبر آلاف الأميال الموغلة في التضاد الوراثي، و حين ابتلعتك جزريات "ميناس" ليلا في توثبها الموسمي، طلب أخر الأشاعرة حق اللجوء الفكري، فاستعاد نخاس الفعل وقاره.

هجلت عيناك تلقاء الماشطة على عادة سيدات البلاط، فاكتشف كبير المراسلين السجلماسيين آثار البلل على أعتاب جناحك، فأبرق إلى بلاده بالحذر.

بكيت نهايات الإسراء في وهن، والبكاء المقّنع أخر أطوار الانفصام، و سرحت عيناك الواسعتان عبر التوخم حيث لا فارس هناك، و انتشقت رغاء المدينة الغافية مخلوطا بالقرقعة، و بمهربات تتشكل في الذكرى، واسترجعت أطياف تاجر الأدغال الإفريقية الذي علا الغبار مطاياه، الراكضة تحمل لبان "غانا" و ريش نعامها، و مجوهرات الاستواء اللامعة، و صغار الرقيق الأسود.

كزرقاء اليمامة تحسنين النظر الممنوع، والذبذبات القادمة تطحلب الصهيل، وعبد الرحمن الوافد لا يزال يعلك التهجئة في مذكرات جابر بن زيد.

- عودوا.

أحببته رغم تباين الرؤى، وانشطاريات التنظير الرسمي، كما بكاه والدك في سره أربعين ليلة تماما، قبل موته لم تسقط مدن داخل الخارطة، ولم تتعدد مواقع اللجوء، ولم يعد استنطاق الهوية، و تعميم الخراج، لكم يستقل بك التفكير يا أروى و المولى الحبشي المجاز في علم القيافة، يؤجل التقاعد إلى جانبك رأفة بصغير أطفاله، عيناك تلثمان الموتور، تحترفان الانتشاء مشروعا، وأعيان المدينة يستأنفون التهجد.

- أروى.

يعاود النطق إدباره، ويفقد الحرف طاقة التفخيم، ويذوب منحنى الخاطر في نداءات النهر، و في انهزامية صوت قائد الحرس تُمتشق الفرجة مقدار شبرين.

- سأرحل معك.

تطوع المولى الحبشي، تحدى ذاته لأول مرة، فأمعنت النظر فيه، لينتظر الإجابة،

- لن نرحل ياعم.

- لن نرحل؟!

سألك بدون إذن مسبق، كنت تتعشقين سؤاله المغامر، لأنه عفوي، وغير موجه،

- الرحيل جرح دائم يا عم.

و بكى قبل أن يقبّل الأرض و ينصرف، وأفزعك أبو الأفلح بدخوله المفاجئ:

ـ في الجزيرة التوأم، صقر قريش المدجن يحلق نحو الأفق
ينشد الطيران خارج القفص البحري، بجناحيه يرسم فكي
كماشة تطال "سجلماسة" و "تهارت"، لقد وُجد باسم
قَبل أخر، يمدد في حياة ذلك الذي بشر به خليفة دمشق، يا أروى.

وأثقله سكوتك، مسبقا يدرك إشفاقك من الخوض في أحاديث البلاط، لماذا يهز الشك كل ما يقدم إليك؟! وابتسم بتجهم:

ـ هل يعني هذا أن تحالفنا مع سجلماسة أصبح واردا؟!

وأبحر أبو الأفلح ببصره خلف النافذة دون أن يلتفت:

ـ ربمـا ربمـا.

البريد يقيل التحية المسائية، وعلى مضارب النطق تبرعم الآهات، يقرأ والدك مظروف "مدرار" السجلماسي بحضور قائد الحرس، وعلى دأبه المتسامح ضحك، و زايل صمته الهدير.

"كان مركز الثالوث الناشئ وعلة خفقان الشمال الأسفل، كما تمتم".

ـ الطائر ينشد الاخضرار يا أروى؟!

و أجفلك الإغراء، فغادرت اليخت بدون استئذان، قلت. قالوا، وأعشوشب الحرف في تضاريس التخمين، تتشممين أحاديث البلاط السجلماسي منذ أن باغتك الكتاب، تشدك الضفة الأخرى من الوادي، حيث ترجل الأصيل في حدقات محدّث الحي الخلفي و تلعثم الدخول، و اهتز نفاذ البسمات على شفتي "مدرار" الضاحية العليا، حين استنهض والده الأمير "اليسع أبو المنصور" لغة الاستشراق المتقادم:

ـ فارسية إذن؟!

ـ بل قيروانيـة.

أجاب قاضي البلاط في حسم مؤكد.

ـ إنها تهارتيـة يا أبتاه.

اللونان يتكشفان خضرة تلامس دافق الوادي، قوة النظر في عينيك الساهمتين تمتص شحوب الغد، وقوافل "العرق الكبير" ترسم أقصى المنحنيات.

وحضر المؤرخ الأعمى فنصح أن هذا الزواج تسرب عكسي، وقال مدرار:

ـ موجع بالتحديق فيها.

و ثار الأمير "اليسع" في وجه مدرار إبنه و القاضي و المؤرخ:

ـ قلبك يستميل الرؤى، يهادن الغلو في سرّي

الأخيلة الدائمة التحديق.

وسكن، فتوسلت "تقية" ـ زوج مدرار الأولى ـ أن يستمر الغضب، واتهمت مدرار بالخيانتين. و استأنف الأمير "اليسع" كلامه في حنق بلاطي:

ـ موجع أنت بغير النفاذ نحو المجاهل يا مدرار،

من سيدوخ الصحراء؟

ـ الحب بدوره حرب يا أبتاه.

وشرق اليسع بدموع قهقهته دون أن يعلق، بينما وارى القاضي ابتسامته بيده تأدبا، وأكد مدرار:

ـ وأبوها صار أميرا لأنهم أحبوه فقط.

وناهضه "اليسع" بقوة:

ـ وأبوك صار أميرا لأنه حارب وانتصر.

في فتوى المجلس حدق مدرار، وهو يروّض الحلم وينخره الرحيق، واستحلفه الأمير "اليسع" بالخلافة أن يقلع عن حرب الحب.

ـ استأنف إسلامك قبل أن ينهي "زياد" دورته عبر الأرض.

الفندق الموالي استقله موكب حاشد بمخبري الولاء، ومحلفين.

ـ موجع يا أبتاه؟!

ـ قلبها معبأ بحاسة الغموض يا مدرار.

مدرار يعلوه تهجم وافد، وأبوه يديم النظر إلى ظلماء المحّيا في توجع سري:

ـ وزوجتك " تقية "، إنها نبتة من حقلك.

ـ التعدد إجماع السنة والباطنية يا أبتاه.

ـ ولكنها غير صفرية؟!

ـ الإباضية فرعنا الأعلى يا والدي.

وتلعثم المؤرخ الأعمـى:

ـ الفرع الأعلى هو النهروان يا مولاي.

والتفت اليسع على عجـل:

ـ اِرحلْ في طلب "أروى" ولتدخل سن الحذر منذ الآن.

وبكت "تقية" بكاء أميريا يرفض الذلة، وقبّل مدرار يد والده الممدودة في كبرياء، وأكد:

ـ لا أطماع لعبد الرحمن الوافد فينا، إنه دائما يصلي نحو الشرق.

ـ الافتراض من أركان الإمارة يا ولدي.

ولاحظت " تقية" في هزيمة:

ـ ولكنها " أروى"، وأبوها ثار قبل المقنّع الخرساني، والجند في بغداد!

ونهض الأمير "اليسع " وقد أخذ صوته يتهدج:

ـ صحيح لا تنس أن إمارته امتدت إلى "ورجلان"، فوادي ريغ، فالجريد، فجبال "دمر" بطرابلس، فجبال نفوسة.

وضحك مدرار وقد اعتدل إلى جانب المؤرخ الأعمى والقاضي، بينما تخلفت "تقية" عن الصف.

ـ و ما يضير زواجي من أورى في ذلك؟

وحملق "اليسع" دون أن ينبس، ثم قال وقد أخذ يزايله امتعاضه:

ـ صدقت، ربما كنت أقرب إلى الحكمة مني يا ولدي.

زفّت أروى إلى مدرار والقلب/ الجسر ينبض بإبهامات التقية في تعاريف الضفة الأخرى، و مرجعيات "إبن سعد" يغشاها الصعود، والسجلماسي يلقي بظله على فواصل معجم الرحلة.

تنكتين ستار الهودج لترسمي خريطتين في حجم متعانق، تهيمين بعناق التراب دائما، و ترفضين انفصامه.

ـ ميناس.

أيها الحبيب السائل من عيون القِبلة، من يستطيع وداعك مع الهزيع، وأنت وحدك في هذا الليل الممتد تبكي قواما مخضرم المعمار، لطالما استحم في مياهك الهادئة؟ وحدك تتطلع إلى النافذة المغلقة بالقصر العلوي في توثب محتشم، تحادث أوزاع المجتر من أحداث الصبا والشباب، وفي موسوعة "ابن سعد" تفتقد "زياد".

ـ أروى أروى.

قطعا كانت مياهك تناديها، بل أنك تسائل مياهك عنها لتفتح احتفالات الإجهاش المبكر، و لتحدّق أيتام الحشائش في القرص المتوارى دون أن تمتهن نطقا موصى به.

رحلت أروى إلى الضفة الأخرى من اليابسة، واليابسة ضفتان، والرحيل في قاموسك اغتيال دائما، واقتلع الحفيف دون إذن عصافير الإيك الغافية، و تاجر "غانا" المحّمل باللوبان حافيا، يعتزل المومياة.

الحدود الأبدية تلتمس أطراف المدينتين، و في مدرج التلاقي وقف المحاضر ينصح بالحذر. أورى، داخل هودجك الكونفدرالي تقرأين بروج العرب في كف منجم "برغواطة". وتطبقين جفنيك المخملين في غير تركيز فيضطرم شجار أبيض بين فرسان الموكب الخلفي، عن أصل الجواد العازف عن اجتياز آخر الحواجز الفولاذية، وعن " أبي ذؤيب" حين تعاطى تضمين نهائيات المعارك في "اليرموك" و " نابلس" و " قرطاجة"، ويمّم شطر مومياء الثغور الصريعة في زمن الفتح العكسي.

و من أقاصي المحطات، يحترف "عمران" عرض جنسيات للبيع و اللحاق، و قيّم الخيول في " القدس" يكتشف الوراثة فتسقط عنه جائزة الموسم على الفور.

ـ فتّشوا ثنايا الهودج الأميري، وأدّوا التحية قبل ذلك.

أناخو مطيتك بتماس الحدود، والجمرك يرفض الأوراق الوصائف، يقول بخرافية التخوم السفلى والمسير يتنازل عن الخبب، ويشّم ضابط القيافة قناعك ويقيس سمك الأصباغ بحاجبيك، يُسرّح الماشطة بكفالة، وأمعاء الحبشي تكتم صحيفة "عمران" في غير تقزز، يُؤمر بالعودة إلى "ميناس" فيودعك قبل أن تُفتضّ بطاقة تعريفه، إلى "بامبارا" (2)، حمّلك تحية إشفاق مهربة.

وتأجل البحث لأن حدقاتك غير قابلة للقياس، و توارت ماشطة القصر ملوّحة بيدها في فزع، وأسقط الحبشي نعله سهوا، وأبقاك الحرس إلى أن تُعرض قوارير عطرك على الجهاز الآلي، بجناح المخبر الهندي، و كان يشغلك سؤال الحبشي و حده فاتجهت نحوه باكية:

ـ و من " بامبارا "؟!

ـ أقدم طباخي سجلماسة يا مولاتي.

و لفظت اسمه مرتين لكيلا تنسيه، وأقلع الحبشي تحت طائلة العودة، تتناوشه أصوات "عمران" و "ابن حكيم".

"أروى"! أيتها الراحلة قبل تشنجات المخاض في تمازج الساعتين، تحملين مكبوت الشفاه، و تحت إبطك غمامات تطفح بالموجع، ريش النعام الغاني تعاود رعشة النظر تاجره، والورجلاني يحادث معالم الإسراء في لحظة الذاتوي المقنّع، وهُداة الموكب يختلون بصحف الصباح، يتشربون واقعة أحلاف " طبنة".

وحين نام القاضي المحلّف، أُفرج عن مطيتك بكفالة خلسة، فتحرك الموكب تلقاء أبواب سجلماسة المزينة بطلاء الجير والتبر الخام، وسألت فارسا ملثما بالديباج عن اسمه فحياك في صمت، و ترجّل قائد كوكبة الترحيب فقدم نفسه فأدركت أنه "مدرار" وخلعتْ جارية شقراء نعليها لتسير أمامك دون أن تلتفت، وأهداك مدرار فتاة تبدو ممزّجة الملامح.

ـ إنها سكرتيرتك، هي من أصل أرمني.

و في صدر مقصورة مقوسة السقف تقدم منك، و بادرك:

ـ أروى، أطراف الجسد تتكتم إرهاص حريق؟!

2–بامبارة: اسم قبائل زراعية عريقة بالشمال الغربي من "الفولتا"، أنشأت مملكة "سيغو" الوثنية.

ـ مدرار، البرلمان يرفض إقرار الخِطبة حفاظا على الأمن العام!

ـ أروى، يتضور الوصل، خلف النفس يمتشق!

ـ مدرار، في تحاليل الدم وكيل العقود يشتم النفاذ.

ـ أروى، مسكون برؤيتك!

ـ مدرار، قائمة المستوردات أغفلت اسمي هذه السنة!

ـ أروى حبيبتي، سكت القانون عن استيراد البشر، وفي سكوته إباحة فعل!

ـ مدرار، المُعلّق الرسمي يحذّر؟!

ـ أروى، البكاء الصحفي ضروري!

ـ مدرار، أتقابلني بلباس الميدان؟!

ـ الجيش في وضع استنفار يا حبيبتي.

ـ مد رار، وزوجتك " تقية"؟

ـ أنت خاتمة الثلاثيـن؟

ـ مدرار، والخليفة " اليسع"؟!

ـ يعارض باسم الدستور فقط.

ـ مدرار، زعيم المعارضة " إلياس" يطالب بطرح الزواج للاستفتاء العام؟!

ـ ليرمم شعبيـة جريحـة.

ـ والمـؤرخ الأعمـى؟!

ـ سيحمّل الأجانب جريرة ما حدث.

بزاوية المقصورة المقوّسة السقف كان الشاعر الرسمي يغازل تاء مفتوحة، وراويته يتحسس صرّة في دهليز الضرائب، و صورك القمرية مادة امتحان في أقسام قوات الإجهاض الدولي، وبوليس الحدود.

وحين استلقيت على سريرك المطرّز، كانت نعال الحبشي تصارع الكثبان، وبقايا التمر في كيسه العفن تركبها رائحـة ما، وقوافل اللوبان الغانـي يلفّها السراب، عائدة إلى معسكرات الوباء. الوراثي .

أروى، تضربين عن الكلام في أزمنـة الكلام، وبعينيك تعاتبين السفح المتوارى على رقصات الضباب المحدق، تتسمعين أنباء العودة عبر طريق الذهب، وعريف الحراس يصدر أمره بتشديد الحراسة.

الفصل الثاني
في انتظار الأمس:

الفصل الثاني:
في انتظـــار الأمــس

في صمت تهزين المهد، ورضاعة نحاسية يداعبها "ميمون" الصغير، سابحة في تلافيف الهدايا، وعيناه الصغيرتان ترسمان خارطة تحكيم عابثة.

ـ نم يا حبيبي.

ـ أروى، ما كل هذه الهدايا؟!

سألتك ضرتك " تقية " نصف منزعجة، لم يمتص تسامحك تشفيها، وقلت في وداعة رقراقة:

ـ أما هذه، فمن قابلتي القيروانية،

وهذه من مربيتي التهارتية،

وهذه من حماتي السجلماسية.

ـ وجدتك الفارسية أين هديتها؟!

وسكت عابثة ببقايا قماش مخضّب من "القادسية" في خلافة الشبياني، كانت بالقماش أتربة من رمس "عمران" أيام التهجئة. ودخل مدرار مسرعا ليقول:

ـ أروى، يصلبني الإطراق نحوك دائما!

ـ مدرار، مازلتُ في روع القاضي دخيلة!

ـ وفي البرلمان، و في الأركان، و في.

وفي حلقات الإبحار المقبل، و في نكوص الرؤى القاذفة للثلج، و في تعاريف الولادات القسرية أثناء الهجيع، و في التوابيت التي أقالها الفعل قبل الحلول.

وقبل أن يترجل الحبشي سأله "ميناس" ثانية فغمغما معا، وأبّن الوادي رحيلك للمرة الألف.

طفلة أنت تنامين في ملتقى الشرائع.

والصوت يلف أشلاء الروافد الطاعنة في الحنين.

يمسح تعاتيم نخلة حبلى أودعتك دميتها.

و"عمران" ينجب كلمته الأخيرة في علم الأجناس، وتشاكس الرؤى، تشقين عباب الحدودين، تمتصين سيول النسغ المركب، في أثداء المحيطات المجبولة على النزوح و التصادم، من أيام " نوميديا"، و البلاط السابح بين الأيدي ينذر بالتوغل.

صغيرك "ميمون" يناغي خصلاتك المهدّلة في إهمال، وعساكر المدينة يرتهنها الشباك، ومفتي الديار يشم التراب تنبأ بغارة ليلية.

ـ مات "عمران" وتجنّحت قصائده دون أن يفصح
عن آخر جنسياته القبلية، وفي حراسة مشددة
دفنته القبائل المهمشة بالتبني، نزولا عند وثيقة حفار القبور.

ـ وزوجه ياعم "بامبارا" ؟!

ـ استدامت بكاء الزوج / التلميذ وأبّنته بقولها:

((تزوجني لأ جدد انتمائي، فأغترب في تطرفي، صار
شاعر دعواي، و صار صريع الخلع))

وتلمظ "بامبارا " مضيفا:

ـ زوجه رفضت يد الحاجب فاتهم الأرض بالدوران يا مولاتي،
كوني كزوجة "عمران" التي جدّد إسلامه على يدها، قولبي
النبضات حسب رؤاك يا أروى.

ـ رؤاي غير بعيدة من رؤى مدرار، فهو صفري و أنا إباضية كما تعلم؟!

ـ حين تختلف الأسماء تختلف الدروب بالضرورة يا ابنتي.

ـ أنت سنّـي؟!

ـ أنا مزيج كل الدعاوى.

ـ أنت عكس ابن عمك الحبشي!

ـ نحن من قبيلة متشرذمة المذاهب.

ـ أه. مثلنا تماما!

ـ مثل كل قبائل الأرض يا ابنتي.

كان الطباخ المحايد فيلسوفا في نظرك، يحادثك خلسة حتى لا يتهم في ولائه، و ظل يتوقع أن تكبري نصيحته فترجلت للأصغاء، و دمعت عيناك الكبيرتان دفئا.

ـ أه يا عم بامبارا لكم أنت وديع.

ـ أحسنُ علم الكلم في كل شيئ، و أختص بفلسفة المطبخ.

لأول مرة تصطادين أطياف التكامل في نظراته الجافلة، و همسه المهرّب يعزف مقطعا من أناشيد المعلم الثاني، صارحك بأنه يبكي تعاليمه في سره كلما اختلى إلى فراشه قبل أن ينام، فهو آخر من أشرق.

لم يتوقع من أحد أن يسأله عن اسمه، إلى أن قذفته شفتاك فأمتقع لونه ثم تماسك، وأبلغته وصية الحبشي، فقبل الأرض بين يديك.

ـ عودوا.

فاجعة هي العودة بعد جرعات الرحيل المرة، وانمحاء آثار الخطو، كان طرفك أبدا مضمخا بالتحديق في آلاتي، لماذا صرت تخافينه ألأنه إبحار في المجهول غير المشكّل؟ أ لأنه عودة.

ـ من قتل المعلم؟!

قذف به سؤاله تحت قدميك صاغرا متضرعا، كانت كلمة أضخم من حلقومه، وتراجع إلى الوراء كما لو طعن، وتناوشته أنظارك في زحم اكتشاف أولى، فارعا كان بامبارا، يتقزم في أحايين الخواء المستعار.

منذ لحظات الانقشاع الأولى أصحر تلقاء الضوء يعاكس التيار، سرق خبز أربعين ليلة من خيم " نـارون" كهلالي مغامر، و اختطف بقايا الكلم من أفواه ترتجف في خفوت، ووزعت صوره الشوهاء على بوليس الأقاليم المحمية، ودبج لائحة تنديد متوسطة اللهجة، فزندقته محطات الاعتقاد.

ـ أخفِ أمرك يا بامبارا، واصل السباحة في تعاريج العباب،
تعوّد نصف الزفير، وأزمم شفتيك المفلحتين أمام الأوصدة
المشعة، ناغ ذاتويتك في انشطار دائما، هامس المرسب
في غلواء الفيلسوف، لا تجهر ببيان النعي الذي أبرق
بـــه "واصـــل".

وتنهدت متبرمة، فاستعجلك ليباشر الصحون:

ـ أبك المعلم في سرك، فالبكاء بالمقلتين استفزاز، والدموع صحافة معارضة، وأشمم طي
وسادتي،
ففي ثناياها رائحة خطابه المهرب ساعة الاحتضار.

ـ أبكيه يا أروى كماشطة "ميناس" وبائـع الحلـي

في منعرجات الأندلس، كالذي أُغمي عليه بملاحب

"مازندران"، كالقصائـد غير الموقعـة،

كالكتب الكاتمة للأسمـــاء.

ذراعاه المعرشتان تسابقان الإجهاش، تركبان أطوار الذكرى المشذرة في سلافات الارتجاع، و السكون يقمع رعشة التقول.

وعلى صهيل الجواد تشرّب البلاط الأرضي طيف "بامبارا"، وتجاوزته قدماه فخلا إلى الصحون و الملاعق يبثها مستهجنات رؤاه الضبابية، وفسح الطريق لخطو مدرار المتزن، حين تعمّد دخول المطعم بحثا عن أروى.

ـ مينائي غادرته سفنك جماعيا يا أروى!

هامسها قبل أن يعتزل سيفـه.

ـ عن ناظري تنزاح خارطة أسرارك يا مدرار.

أجبته في تصعر بيّن وهممت بالانصراف كدأبك.

ـ غُليا مصالحي وكلما تسامت تنزهت عن الإفشاء يا أروى.

كلماته أخذت تتردد جوابا أبديا، و"الياء " أبدا أداة احتكار، ترسم حدودا ثالثة متوثبة النماء، والفعل منازلة مكشوفة لأ صله.

ـ راياتك تركب المغامرة في الأصقاع عكس المحبين يا مدرار!

ـ أنا لا أقاتل من أحب يا أروى.

ـ قد يحبونك؟!

ـ أكره أن أُحب بدون إذن منـي.

ويتطحلب المسير، يستحيل دوارا ينبض بالمشترك في بعاع الركض الخلفي، وكوكبته التجسسية الخاصة تضاجع انحناءة الوادي في تردد، واعترافات المعلّق الرسمي تعتصر الوجوم، وموكب نزهته صوب الوادي يشق صفوف الأطفال، و قد تأبّطوا أعلاما مزدانـة بشـيء ما يناقض السواد العباسي.

انتصبت تقاطعين جنسيات في كف طفل لاثغ، ومنتدى العجيج في تموجات مخضرة، آخر استقراء في حشرجة المعلم الثاني تنادمينه.

ـ سفير عبد الرحمن الداخل بالباب يا مولاي.

المتسول العمومي يتعاطى الإصغاء من بعيد، وقيم المجوهرات يفحص آخر الهدايا المرسلة إليك، وأرملة الكوخ الجانبي تبتسم في وجه فرقة تابعة لقوات العفو، وأنت تعتزلين النظر طواعية رحمة بشرفها، وخيول البريد تحمل مظروفا قيل إنه يزن أطنانا، كُتب على حاشيته ((مفعم بالسرية)).

ـ ماذا أراد سفير الداخل يا مدرار؟!

تسألينه في تطفل مكشوف، فيبتسم دون تلمظ هذه المرة:

ـ دعانا لحفل سيقيمه "الداخل" بمناسبة القضاء

على جيوب المقاومة العباسية في جزيرة الأندلس.

ـ وهل قبلت الدعوة؟

وانتفض:

ـ ولكنها دعوة تخل بالحياد المتوارث يا أروى؟

واغتصبت منه بسمته، ورمقته بنظرة ملونة، وغادرت المقصورة.

الأسطول البزنطي في هذه الأثناء، يعلن عن قمة راقصة بخلجان منزوعة السلاح، و" بسر" يوقع اتفاقا غير مشترك احتفاء بأعياد الميلاد.

أخبرك عريف المطبخ وأخذ يعلك وصاياه، ينتعل حاجة للإفصاح، كل هذه الأخبار فقدت شهيتها أمام آخر ما بلغك، لقد أسر به إليك وكيل البريد خلسة فأفزعك، فتح زر سواجمك المتأهبة، غشاك دوار وأنت تحثّين خطاك نحو مقصورة مدرار، واجما وجدته، يتحاشى النظر إليك، فأدركت أنه سبقك إلى العلم، ضارعة جثوت أمامه منكسرة، و في مسكنة خاطبته:

ـ هل مات والدي حقا يا مدرار؟!

قلت في حالة بكاء قصوى، فأربكه المشهد، وأمتشق سيفه بعصبية، وأصدر أمره إلى قائد الجيوش:

ـ فلتشحن التخوم الفاصلة إذن.

ـ ظننتك قد تتعاطف يا مدرار؟!

ـ ما يعقب الموت من فوضى يجبرني على الحذر يا أروى.

ـ كان أبي يغتصب أرهاص الفوضى.

ـ المقعد الشاغر مبعث إغراء دائما.

ـ وأبـو الأفلح؟!

ـ لا إخاله يحسم الأمر كما تتوقعين.

نحو" ميناس" تغادرين سجلماسة، وعل شفتيك الوراثيتي الأرجوان تنعقد صرخة، ويعلق الجرح على الأعطاف، يناقض اندمالات يلهبها التقادم.

وعند بوابة الحدود سُئلت عن اسمك مرتين، وتصفح مخبر مأذون أوراقك في عناية، نقاط النهايات تتراقص خارج الحدود، وداخل الموكب الجنائزي يتضوع نفاذ الشهية، وكبير مرافقيك يستغور بقايا الخزائن، بعد أن مات حرفي الشعر قبل صدور مرثاته النونية الرائعة.

المرافق السجلماسي يسترق النظر إلى أحواض الذخيرة، يتصيد محدثات الوسائل الحربية في جناح التكتم الرسمي، ويدلي بالتعازي في وجه الوافدين لمصافحته.

على جدائلك المتمردة، في رفق تربت المربية العجوز، وأنت خلف الموكب الباكي تحادثين" ميناس" جهرة عن واضع المدينة الأول، والفبائيات التنظير في ملتقى الرصيفين، و خاصيات علماء اختراق الحدود الشرقية، ووثبة مدرار المتوقعة، وخطاب صقر قريش في مشارف جبل طارق.

ـ والحبشـي؟!

سألت عنه من بين دموعك.

ـ عاود الرحلة رغبة في الاغتسال.

أجابت الوصيفة الزنجية مرتجلة دون أن تبكيه، وعلقت في سرك:

ـ كان يكتم تداعيات النبض المنساب من أقاصي الإجفال، في أزمنـة البوار المحدث.

مات عبد الرحمن الوافد دون أن يصلي أحد بالناس في حياته، وظل البلاط التهارتي هادئا، و قائد الجيوش يستبعد الطوارئ، لم يتحفز الصدام في الماثل، وسألت أبا الأفلح عن إمام الغد، تحت إلغاء عرف الوصاية، فدعاك إلى الترحم على الوافد، والصلاة من أجله، قال لك:

ـ دستور الدولة يقضي بانتخاب رئيسها لمدة حياته

أو بالعهد إليه من سلفه، وفي غياب الثاني

لا أعتقد إلا البند الأول يا أروى.

وأجلت الحديث في أمر الخلافة، طالبة إلى الزنجية أن ترافقك إلى مكتبة "المعصومة"، كنت تكنين لها حبا خاصا، وحركت مؤلفات المشرق رغبتك من جديد، وشدك بقوة ديوان "الحميري"، و لكنك احتفظت بإعجابك لعمران بن حطان، والطرماح ابن حكيم الخارجيين، وحين التقيت أبا الأفلح أثناء العودة تبنيت قولة مدرار:

ـ المقعد الشاغر يبعث على الإغراء يا أبا الأفلح ؟!

ـ خارج الدعوة يا أروى.

ـ لا تماطل، أعلن نفسك أميرا قبل أن.

وغاضبا قاطعك:

ـ ليس من قواعد الدعوة أن أعلن نفسي، بل من قواعدها

أن يُعلن عني غيري، أو أن أعلن غيري أميرا، يا أروى.

ـ لسوف تجد من يفسرالدعوة عكس ما ترى، يا عبد الوهاب!

ـ كلهم تلامذة عبد الرحمن، وأنت منهم، أم؟!

ـ إنها فرصة العمر وقد تضيعها؟!

ـ العمر كله مجرد فرصة يا أروى؟!

وأقفلت عليك بابك، ثم حادثت والدتك في الأمر، فحذرتك من الكلام أيام الحداد، فحين يمثل الموت تخجل الحياة.

و في ركب التعازي وفد مدرار وهو يمج إشراك الرأي العام في إقرار السيادة، ونصح أبا الأفلح بالعدول عن صباه :

ـ لا تترك فضل تعيينك لأحد، فيصبح ذا فضل عليك في غيره.

ـ الانتخاب الحر هو ركن الدعوة يا أبا ميمون.

ـ حين تتجذر الدعوة عليها فقط أن تملي خياراتها على الأخرين.

ـ تنحـرف إذن. ؟!

ـ بل تناوئ رؤوس الانحراف.

ونهض أبو الأفلح شبه غاضب، ثم التفت إلى مدرار الذي حافظ على اتزانه:

ـ لقد كان تعيين معاوية بالقوة أصل وجود الدعوات كما تعلم.

ـ الدعوات لم تناهض في نظام الخلافة منطق القوة، بقدر ما ناهضت شوفينية القبيلة واقتصار الأمر على قريش وحدها.

ـ لقد استعضنا عن منطق خلافة القبيلة، بمنطق ترجيح الولاء للدعوة ولا فرق بين الشوفينيتين.

ـ وهذا أقرب إلى المنطق من دعوتهم، فالمعتقد يسمو دائما على الولاء العرقي الذي قالت به بنو العباس، وبنو أمية من قبلهم ولن تخرج عن دائرته الشيعة يا أبا الأفلح.

و دخلت أروى تعتصر مآقيها، فوادعها أبو الأفلح بقوله دون أن يجلس:

ـ لا ينبغي أن نبالغ في بكاء موتانا يا أروى.

و تقدمت من أبي الأفلح و هي تلحظ آثار مناظرة بينه و بين مدرار السجلماسي:

ـ لكم تمكنت منك فلسفة "الجناوني" يا عبد الوهاب، أمن أجل أن تعلن نفسك أميرا إعلاء لمشروعية الوراثة، تخوض كل هذه المناظرات الطاحنـة؟!

و مسح على جبينه في تعب:

ـ لو تعلق الأمر بمشروعية الوراثة لأعلنت البيعة "لموسى الهادي" العباسي، فهو الخليفة الشرعي بمفهومكما هـذا.

و قفز مدرار:

ـ تكاد تكون مرتدا عن الدعوة يا أبا الأفلح؟!

وحاول الانصراف فتشبثت أروى بأثوابه، فعاد إلى عبد الوهاب يؤنبه:

ـ ماذا سيقول عنك الأغالبة و أميرالأندلس، وأدارسة "وليلة"، وطاهريو خرسان، ووجوه سجلماسة، بل وحركة الفاطميين الناشئة؟!

ـ عبد الرحمن بن رستم لم يطلب إلى أحد مبايعته، وحين بايعوه عن طيبة خاطر، قبل الإمارة وهذا موقفي.

وكادت أروى أن تشهق بدموعها:

ـ لسوف تمنح خصمك "مسعود الأندلسي" فرصة وأي فرصة.

وانتهرها عبد الوهاب بقوة:

ـ خصمي؟! أعوذ بالله، لماذا تصفون الواقع بألفاظ تتجاوز حجمه.

ـ ألم تسنده أغلبية مجلس الشورى على حسابك؟!

ـ بلى وأني لمع الأغلبية في ما ترى، والرجل قد رفض الأمرلأنه و في لتقاليد الدعوة.

وقالت أروى بصوت خافت:

ـ عمر بن عبد العزيز ذاته دخل الخلافة من باب القبيلة.

وارتجفت لحية عبد الوهاب، واهتزت قامته المديدة، لأول مرة تغضبه كلمات أروى:

ـ الفاروق الثاني جُيء به إلى الخلافة ولم يسع إليها كما تعلمين، لذلك فقط كاد يحقق الإجماع الذي عجزت عنه كل فعاليات الأمة.

ـ ولكنه ابن القبيلة الأم على كل حال؟!

ـ لنفترض، وما قبيلتي بالقياس إليه؟!

وقهقه مدرار:

ـ تقولها وحليفك يزيد بن فندين، عِده فقط بمنصب محترم.

ـ ماذا أسمع؟ قبيلة ومنصب محترم؟ أين دستور الدعوة إذن؟!

ـ الدعوات دساتيرها القوة يا أبا الأفلح.

يئس مدرار من أبي الأفلح ودعا بلبن قبل امتطاء صهوة جواده المدرّع، وبصره يوغل في تعاريج وجه الصهر المتمرد حين إبتسم، ورفضت أروى أن ترحل إلى سجلماسة قبل أن يخرج أبو الأفلح عن صمته الثقيل، وتقدمت منه حين انفردا فبادرها بقوله:

ـ أروى.

ـ أبا الأفلح.

ـ حدثيني عن مقاسات الأفق المغشّى، وتضوّر الجار،
وعن المحتمل المشبع بالسالب، وعن تهان تتقدمها تعاز في تأرجحات
المعيش المتصابي.

ـ توقّع دائما يا أبا الأفلح، كما توقع أبوك الوافد حين أضر به
الحنين، عشية استئصال عراف النهر العلوي، وترقب
شأن المعلم وهو يثخن في القائم المتوارث.

وأطل وجه وكيل البريد في هذه اللحظة، محتفظا ببقايا تجهمه، وافتض عبد الوهاب مظروفا جديدا بإسمه، ثم حوله إلى أروى وهو يبتسم، فأجالت ببصرها عبر خطوطه الزاهية و علقت:

ـ مذكرة احتجاج من والي القيروان.

وتضاحك عبد الوهاب:

ـ يدّعي أن القوة لا تُمنح، وأن الانتخاب بدعة يمجها دستور
الخلافة الأم في بغداد.

وهمست أروى إلى نفسها:

ـ وما شأن تهارت بالخلافة الأم؟!

وعادت إلى أبي الأفلح تقول له:

ـ أبا الأفلح؟ هل تكبر الصغيرة؟!

ـ وهل تصغر الكبيرة يا أروى؟!

على بوابة متاخمة يُصلب العشق، وضوابط الانتجاع تلتقي خلف التباين، حيث تزدهر شدة الحيطة في توأدة، وأبو الأفلح يهم بالدعوة لغير نفسه، ومزارع الضفة الأخرى من " ميناس "، يتحفز للتصديق على تصويت مجلس الشورى يتأهب.

ـ انتخاب الخليفة؟!

استفسر صقر قريش من خلال ناطق غير مأذون، وعربد الموج في الأضاحي ذات الصقيع المزخرف التغضن، وأنصت قائد الجيش في اكتراث هذه المرة، ودندن مغني القصر الأندلسي بأهزوجة من وضع مؤلف فقيد، أما تاجر القماش الغاني فلم ينزل السوق كعادته، لأنه يخفي منشورا باطنيا بتوقيع الرابطة العبيدية للانتظار.

ـ كان على أبي أن يوصي.

في امتعاض مستهلك رددت أروى.

ـ أوصى بطريقة لا تخّل بدستور الدعوة يا أروى.

واختفت وراء رموشها المنسدلة في كثافة، وقبيل الإدلاج الثامن أصحرت فذلكات الإطراق، تقتحم طباق الضباب على أجنحة عديمة الحركة.

القافلة المقلة للسفير البزنطي تخلفت لحادث مرور "باليرموك"، وزئير الداخل يضرب على المضيق حصارا، وفي العتمة تترى مراجعات السجلماسي تباعا.

ـ توقّع أبا الأفلح.

أضافت أروى، ودوي الصخرة يتزامن مع أصول الحكم في أعالي الأزرق المضرب عن الاخضرار منذ عام الضوء، فتجهض القابلة تحفزها، ويشرئب الوداع.

ضارعة أنت إلى قبر عبد الرحمن الوافد، تلتقطين سقط التشيؤ، تطاردين ملامح الساكن، و المخاض ينتصب في هدير " تدمر"، ومشترع " بابل" يبحلق في مواد منسوبة إليه بعد وفاته بالسكتة، و عيناك تلتهمان أنجادا أخذت تكتسب الملوحة، والملوحة يروضها الصهيل في بطحاء القبيلتين، وعمدة الثقاة يقلع عن الإفتاء في البهو الرخامي مؤقتا.

وصيفتك الزنجية التي تحفظ كتاب "ماطوس" عن ظهر قلب، تسائل منحنيات الرافد العلوي عن آخر مرة يستقبل الفيضان، فيهمهم في سكون.

سترحلين على متن مطية مشبوهة، وستهجرين التلال، وستجبرين على النزول في مطارات الضباب الداكن الموسمية الانفتاح، حيث تصاريح الحب المستهلك ترتلها مكبرات الصوت.

نحو أعمق النزعات ينصرف ذهنك يا ابنة الوافد، غريزي الانكفاء إذا جن الليل، يمتشق دقيق التفاهات زمن القصر، وخوارق التضاد حين أينع القيل العام.

المسجد العام ذو المنارات المتطاولة يعكس ضجة سكون، أسراب النسوة يحلقن على النوافد تطلعا لما قد يقع.

ـ اختفى مسعود الأندلسي.

هوذا ما رددته الألسن في الأنهج الخلفية، أنت تدركين أن لعبة الاغتيال تمجها روح تهارت، و أقررت عبد الوهاب على مناظرته في سرك، لكم كان يعرف خصمه عكسك وعكس مدرار، كان خصما يرفض أن يُعلن، تماما كأبي الأفلح.

حين أعلن مجلس الشورى عن ترشيح أبي الأفلح للرئاسة، اخترق "مسعود" الصفوف ليكون أول المبايعين، ماذا يعني ذلك؟ تساءلت في فرح، وتمنيت لو بقي مدرار ليرتوي من مشهد المسجد، وتدفقت جموع المصلين لمبايعة عبد الوهاب بدون إذنه، فخيل إليك أن يد "يزيد بن فندين" تمتد نحو أبي الأفلح في غير طواعية، وأن وجهه الريان قد غزاه شحوب طارئ، إنك إذن لعلى صواب، أنصتي إليه و قد أربك صمت المجلس بقوله:

ـ ردءا للاستبداد نشترط إلزام مجلس الشورى

بمساعدة الأمير، قيادة جماعية.

وامتعضت لأصوات خلفية تسللت بالمساندة، وترامت عيناك حيث وقف " مسعود الأندلسي " في أدب فقهي معروف:

ـ لا تخلطوا الأمر، للأمير صلاحياته وللمجلس صلاحياته أيضا.

وتشرّب "ابن فندين" غضب "مسعود" من بعيد دون أن ينبس، وألقى أبو الأفلح خطابا في السلك الديبلوماسي، أغضب السفير المتعاون فهدد بالنقض وكساد التجارة، والنقض يتقنه الخلفاء بالوراثة، و بقايا ملوك الأدغال الجافة.

تمانعين حضور سيل الألوان المتناغم على ظهر حاملة المجانيق البزنطية، وتُحجز منك تذكرة الحفل، تفركين عينيك أمام مشهد تذكاري بحت، وفي حركة غير بروتوكولية اشتد بك الشوق إلى مرآتك الصغيرة الحجم، واندفع إلى حلقك زمن الطريق الصخري، وطيف الحبشي يخب السير اهتداء.

ببسمات النيازك القابلة للإقالة، قبل أن تتوارى خذول نوق النعمان بن المنذر خلف أبراج المراقبة.

وقبيل الهزيج تختلين لتقرئي لغة القلب الفاقد للتراجم، كان قلبك رخوا يتضور، يلمح ابراقات تلفها العتمة، فارع المقاس، مجهوض الذكرى.

قبل الأوان دُعي للفعل فاستهلك حركية الشروع، وقال بالاستيداع المسبق، أنت تذكرين طرقاته للمرة الأولى، لم يكن مدرارا، أو هشاما بن الصقر، أو إدريس الأكبر، أوعبد الله بن الأغلب، بل كان العباس بن أيوب بن العباس، ثاني فرسان تهارت وخليفة أبيه على قيادة جيوشها، لقد اختلس النظر إليك في سوق الصاغة بالضاحية الوسطى من "المعصومة" بعيدا من قصبة دواوين الحكومة المشرفة على السوق.

صارحك قلبك بأنه يرفض إطراقه، لا يعطي سهومه أبعادا ظلالية، فمثله مثل "ابن زلغين" برجوازي المدينة الأكبر، بل وحتى إبنه "يبيب"، لم تؤاخذي الجميع على أنظارهم المتطفلة، بل انتظرت صدى قلبك حيث يهامسه نسيم " ميناس"، والحق أن أشجار الدفلى التي تغطي ظفتيه بزهورها القانية الحمرة، لم تطارحك الموضوع من أساسه.

كنت ساعتها لا تتذكرين إلا المعلم الذي أخذ إكباره في قلبك قيمة رومنطيقية خالصة، فتبكينه في مقتله، وتشهدين القمم المغشاة بالسحب على فاجعتك السرية.

في تهارت، شارفت نهايات موسم الحداد، فودعت "ميناس"، في منتصف ليل غير زمني، و استحضرت مخيلتك الشاردة لون الحبشي ثانية فامتقعت لذلك، وانطلق موكبك تلقاء سجلماسة يسبقه نفير حظر التجول.

قلبك إزاء كل رحلة يلملم آثاره، يعتكف، يقبض على أشتات قيروانية آخذة في التشكل، يختطف إيقاعا سجلماسيا يغترب.

في قسمات محياك تتفرسين كما لم تُمنحيه إلا في صبيحتك هذه، وإشراقات وامضة تنفض غبار اللحظات الثقيلة، وتوهج يميط الذبول المكتسب، فتصطحبين الذكرى إلى مجلس مدرار.

قبعت تعلكين فاجعة وفاة الوافد، وتباشير الاستشارة في معجم الدعوة، إلى أن فاجأك قائد الأركان يخترق بوابة المقصورة، كانت شفتاه تبتلعان شيئا يكاد ينفجر داخلهما، ولكنه أحجم.

- سيدي.

- تكلم أنها حرمنا كما تعلم.

- سيدي.

وأشار مدرار يطلب خلوة باستثنائك، فيعتصرك الدوار، تغادرين مجلسك في غير خفة، تعلكين صيغ الإضافة، تناجين بكاء خارج الخارطة الحذرة.

ـ ماذا وراءك أيها القائد؟!

ـ السفير التهارتي يقدم أوراقه إلى "الداخل" في هذه اللحظة!

وتلجين المطبخ لكيلا يلـح مدرار في اللحاق بك بعد انصراف قائد الأركان، تدركين أنه لا يستدعي انصرافك من المجلس إلا أمر يتعلق بتهارت، كان ذلك دأب الأمير"اليسع" قبل وفاته، فما بال مدرار يحترم التقليـد؟!

وحين دخلت المطبخ اندهشت.

ـ بامبارا مابك؟ أتبكي فعلا؟!

ـ مات ابن حكيم يا أميرتي.

ـ الطّرمــاح؟!

ـ مات شاعر الدعـوة.

وتقدمـت منــه:

ـ مات تحت سيـاط مـن؟!

ـ تحت سيـاط نفســه يا سيدتي.

ولحق بك مدرار ليردد عليك أنشودته المسئومة:

ـ متعب بالنظر إليك.

ويمخرك الغثيان، فتزمين شفتيك منصرفة، لحق بك " بامبارا "بعد أن استأذن.

ـ أنشدني بعض أشعار الطرماح يا "بامبارا ".

و تنهـد:

ـ في حضرة الخليفة اعتصم بالإنشاد متكئا، ففاز بالجائزة خصمه يا مولاتي.

وقوافل السند العائدة تختلس نعيه، ووثيقة التأبين تضمنت تعريفا برؤياه.

التأويل تحذقينه قبل ولادتك الأولى، زممت شفتيك، ليواصل الطباخ العم:

ـ مات ابن السمح، والوافد، وعمران بن حطان، وواصل بن عطاء،

وابن حكيم الطرماح، و جابر بن زيد، ومهنى النفوسي.

ـ مات الكل يا بامبارا ففيم بقاؤنا أحياء؟!

وبخارج المطبخ يزمجر صوت يحمل دمغة نافذة، وتقهقه الجواري في احتشام، صدى لبسمة الضرة "تقية"، ليقبل "بامبارا" الأرض وينصرف، كان يلقن الصحون أدب الإنشاد بين يدي الخليفة.

وأنت أبدا سبابتك تلازم شفتيك، وعلى هضبات جوانحك الطرية المفعمة بالآتي، يرتع التداعي، تلونات غير خاضعة للقياس هو الآتي يا أروى، واثقا من استشرافه كان المعلم، و بين أنامله المرتجفة انساب تلقاء العَود ساعات الاحتضار.

ـ عودوا إلى ما كنتم عليه قبل البَعد.

والعود أمر يرفضه أبو الأفلح، ليشتق كونا خارج الكون، والقَبل أنياب مكشرة الفراغ، تصانع ألعابا على متون العراء الرتيب، جدائل أحلام تخفق في هواء مثقل بالألوان الوهمية.

وهامت بك ذكرى أبي الأفلح في لقائكما الأخير، قال ساعتها في تؤدة يتقنها:

ـ لا تمنطقي المرئيات يا أروى.

ـ ونيران الضواحي يا أبا الأفلح؟!

ـ إقرئي المعلم جابر.

ـ لعن الكرسي، نعته بأنه مفترق الفلسفات، فانتبذه.

أبو الأفلح يومها لم يدخل عليه قائده وشفتاه تصارعان نطقا ممتنعا، لا يتزوى حين يراك، و يعاجله أبو الأفلح بالسؤال:

ـ تكلم، إنها شقيقتنا كما تعلم.

هل كان عليك أن تلملمي نعليك موغلة في الانصراف؟ تحادثين العدم، وزورقك التائه بين مرافئ الأسرار الرسمية يغازله عبث التجديف، والعياء يمخر غصنك اللدن؟

تتخيلين نفسك خارج الخارطتين قابعة، تتوقاك أسرار "درار"، وتخافك وثائق عبد الوهاب؟!

" كجليلة" الوائلية أنت، حسناء " بكر" و " تغلب " في ألعاب الغارة، و حلبة الثارات المزمنة بين القبيلتين، تتوعكين بين واتر و موتور، قبل آوان الثأر، ودونك زمجر أبو الأفلح حين بلغه أن طلائع استكشاف أغلُبية تخترق الحدود سهوا:

ـ ألغوا معاهدة ابن حاتم إن فعلوا.

خارج الرأي تتعثرين في إضافيات ثوب بنجابي الألوان، وشعرك الكاسح يستعصي عن التجديل لآخر مرة، وطاردتك التصريحات المتطايرة:

ـ سأعيد أمجاد" أبي الأعلى"

يعصف أبو الأفلح بالباب يسبقه هديره.

ـ باسم الخلافة الأم مدوا البساط إلى ما وراء المضيق.

أزبد المندوب العباسي في القيروان، قبل افتضاض المجلس.

ـ أراض موروثة طبشرها عبد الرحمن الداخل.

يرتجف مدرار فيناوله الحكيم أعشابا مهدئة، ويستفتي عميد منجميه بعد انقضاء الصلاة، وخلو مجلسه إلا من " تقية".

المنجّم يركبه البساط العائم، يتطاير شرر مبارك من عينيه الغائرتين، وتكتسح جسمه البني رعشة نهم قصوى، فتتلوع " تقية"، يأخذها الدوار، يجتاحه ذهول وافد.

ـ أبشر يا مولاي.

بزاوية الرواق يومض ضوء أخضر، تتضاحك الأسترة السبعة، ويقبّل المنجم البلاط مرة ثالثة، يترنح به الوعك، يتمدد بحضرة الأمير، ترتعش يداه، ويبتلع تمتمة:

ـ تنط الكراسي وتبايعك التيجان.

ـ التيجان؟ أبو الأفلح؟ الداخل؟ وراشد؟!

ـ والرشيد ذاته يا مولاي.

وتبتسم " تقية" دون أن تقاطع التجلي، وتدخلين يا أروى فيفتر النبس، ويحاورك مدرار في تسريحة الأمس، وخاصية عصير الريحان في النفاذ إلى الأنف المزكوم، وتبتلعين رحيق ثغرك الأرجواني تحت شزرات الزاوية الأخرى، والمنجم ينبش قريبا من "تقية")بأصابعه في وله فطري غير متكهل.

المشهد يستنهضك، المقاعد الخلفية تبرحينها، تسبقك خصلاتك المسترسلة في عناد.

ـ غريزة الاستغوار تمخرها يا مولاي.

قرأ المنجم طالعك في حيطة وتلمظ.

وعادت " تقية" في غنج، تقتضم تفاحة مهداة في سلة فضية، فأسرع "بامبارا" بإحضار سكين مجلوبة، و أومأ مدرار بالوقوف ترحما على روح " زياد" .

ـ أبو الأفلح يتأوب الوداع، يردد تراتيل الرعية، يعتقد
بسم الذيل، يعانق البحر، ويعبد طريــق
الذهب الزنجي، وراشد يرفض النظر إلى موقع القدمين،
وقد تطأه الحوافر المدلجة صوب المضيق الخلفـي.

ـ ومع ذلك أيها الأميـر.

أكد المنجم في ثقة، وسأل مدرارُ:

ـ كيف أسميت ولدنا الجديد يا "تقية"؟!

ـ ميمون أيـها الأميـر.

ـ تيمنـا بابن أروى.

ـ بل نزولا عند وصية المنجم، هل نسيت؟!

وأكـد المنجـم قولـه:

ـ ((أسميه ميمونا و ترقبي انبجاس الندى في صلد صخـرة
المغارة، وانتظري الطلع بلحاء الأعجاز العقيمة، ولتسقي
أيتام الدفلـى بفضلات البرك العفنـة أيـام الآحاد))

وقال مدرار وقد انغلق عليه قول المنجـم:

ـ استمر في حديث التيجان يا عراف سجلماسـة.

وقهقه الشيخ قهقهة متعبة، كأنه أستل نبراتـه بقوة من حلقـه:

ـ لقد نسيت تاج" إيرينا" ملكـة بزنطـة أيها الأمير.

ـ لكأني بك تهـذي.

ـ لسنا أقل خطرا من الرشيد العباسي الـذي
يسعى إلـى فرض الحمايـة عليـها.

ووقف مدرار، فوقف لوقوفه كل من المنجم و " تقية "، وهز رأسه:

ـ أجل أجل لسنا بأقل خطرا ولكن

الخطوة الأولى إخضاع تهارت، وولیلة، والأندلس فالقيروان!

ـ اعتبرها خاضعة منذ الآن، إن كلام الرمل

لا يؤول إلا بطريقة واحدة.

والتفت مدرار إلى "تقية":

ـ ماذا ترين؟!

ـ استشعر دفئا في كلماته يا مولاي.

الفصل الثالث

"بامبـــارا يلقي معلقته أمام الخليفـة":

الفصل الثـالث

"بامبارا يلقي معلقته أمام الخليفـة":

قذف المدّاح بخيزرانه إلى خارج الحلقة، فتوقفت أنغام القصبة أليا، وهدأت دندنات الدف الغربالي الشكل، وزفر المدّاح في تذمر قبل أن يلتفت إلى من ناوله خيزرانه من الأطفال.

ـ عشـرة عشـرة.

ظلت يده ممدودة في تحد، ومن الزاوية الخفية نبر العجوز في حنق:

ـ والعشرة دنانير التي التهمتها منذ حين؟!

وساخرا تضاحك المدّاح:

ـ عشرة دنانير؟! سجارتيـن!

قطع مسافة مترين على متن سيارة أجرة!

استطال المدّاح، تمادى في تعداد حاجات يمكن لقطعة العشرة دنانير أن تغطيها، في زمن التقتير والمجاعات الفاتكة، إلى حد اعتقد معه بعض سامعيه أنه استأنف سرد وقائع سجلماسة بدون مقابل، إلا العجوز الذي قاطع المدّاح:

ـ كان عليّ أن أسد بها بعض هذه الحاجات لولا

وعندها تقدم الرجل الأصلع من المدّاح فمنحه قطعة من فئة خمسة دنانير، فاختطفها وهو يقول :

ـ هيه، ربما غطت مسافة الحديث عن ميمون بن أروى.

وفهم القصاب أن الأصلع قد أنهى إشكالا كاد يقوم بين المدّاح والعجوز، فأقلع دون أن ينتظر إشارة بالبدء كدأبه، والحق أن صوت المدّاح لم يتخلف، فقد لاحق الأنغام دون تلكؤ.

وخفت صوت القصبة حين داهمها المدّاح بقوله:

كاهن الأوراس "عاصم بن جميل" ، ظل يخاف عام السبت هذا، قال لجلاسه في ليلة مقمرة :

ـ يشدني غليان الخريطة، أتلمس مظاهرات الفقهاء بقرطبة، وثورة إسحاق إبن محمد بفاس، وتمرد قبيلة هوارة بثغر تهارت، وحداد القيروان عقب موت روح بن حاتم، وصليل المقنع بخراسان، وحملات بزنطة، وتهادي بوارج شرلمـان.

ساعتها كان ميمون الأول في نظرك قد تجاوز حدود الإفتاء، وصار مذهبا قائما يرفض الإمـلاء، تطاعنه الحلقات الليلية، مدرار استشارك في الإذعان لمطالب ميمون الأول، قال لك:

ـ لا يكفي أن يقضي في ولاية العهد أكثر مما قضى.

ـ وما ترى يا أبا ميمون؟!

وغادر مجلسه في هدير مسموع:

ـ إنه يحكم سجلماسة بواسطتي، أنا مجرد

وتوسلت إليه أن يزايل ثورته:

ـ ميمون ابنك يا أميـر.

ـ ابني ومقلّم أظافر سلطتي!

ـ بل هو يستهتر في حماك، كأي ابن مدلع.

واقترب منك، وقال هامسا في حنق:

ـ المعارضة تشيع أنك وميمون تحكمان سجلماسة يا أروى؟!

ابتسمت في إغراء فاتـك:

ـ في ظلـك يا أميـر.

وتراجع مدرار أمام نظراتك كعادته، وقد بدا كهلا في هذه اللحظة:

ـ قررت التنازل عن العرش لصالح ميمون ابنـك.

وصرخت في إجفال صادق:

ـ يخلفك على العرش وأنت لاتزال على قيد الحياة؟!

ـ نعـــم.

ـ سابقة لم نعهدها حتى في بلاط دمشق أو بغداد.

ـ هو ذا قراري.

وقلت في تخـوف:

ـ أقرأ في عيني ميمون دائما مكبوت غلواء يا مدرار.

وخارج المقصورة الرسمية تلكأت "تقية" وسألت القاضي:

ـ وميمون ابني؟!

ـ سكوت الألواح يخرسني يا مولاتي.

ـ ووجوه سجلماسة؟!

ـ تربكهم جرأة أروى.

ـ بل يربكم انصياع مدرار.

وحك القاضي أطراف ذقنه كمن يحمل همّا:

ـ يبدو عاطفيا في معظم قراراته.

ـ لذلك عارضنا زواجه منها، لولا تخاذل والده اليسع.

وتقدم المؤرخ الأعمى ليقول في انحناء:

ـ على أي حال سنقود معارضة مكشوفة، باسم ميمون الثاني وحقه في الإمـارة يا أميـرة.

هل تتوجسين تنازل مدرار؟ لا أحد يدري إلاك، وقلت له:

ـ لا أعتقد أن الأمر يبلغ حدا كهذا الذي أسمع.

ـ بل تجاوز ما ظل معتقدا يا أروى.

وعاد إلى مجلسه وقد قاطعه سعال عنيف:

ـ ثلاث سنوات من الحروب الأهلية بين ميمونك وميمونها، وظننت أن إبعاد ميمون ابن "تقية" يضع حدا للشجار ولكن.

ـ عِدْ ابن "تقية" بالإمارة بعد أخيه.

ـ ولكنه الأنسب يا أروى.

ـ استشر وجوه سجلماسة.

ـ يرفضون ابنك لصلفه وعناده.

وعاوده السعال حين قال لك:

ـ سأنزل إلى المسجد لأخلع نفسي.

منذ أن صار ميمون أميرا على سجلماسة، ورؤاك توغل في الاغتراب، لقد كان للكرسي جاذبيته العنيدة، لعنته، كما تسمينها، واستأذنك مدرار في الإقامة بمدينة "درعاء"، فعز عليك رحيله، وناهضك ميمـون:

ـ وماذا تعني إقامته بدرعاء غير مؤازرة ميمون الثاني؟!

ـ المدينة محببة إليه منذ صباه.

ـ أحول دون رحيله إليها.

ـ ماذا؟! تحـول.

وسبقت عيناك إلى النطق، فبكيت مدرار.

ـ أماه. السياسة ترفض البكاء.

ـ ترفض البكاء لأنها علة الدموع يا ولدي.

وتقدم منك مظهرا تعاطفه الذي تعرفينه عن قرب:

ـ ألا تخافينهم عليّ وقد تحلقوا بدرعاء؟!

ـ بدوري أفكر في الرحيل إلى تهارت.

ـ سيدة مثلك تستجمع أسرار سجلماسة، لا يمكنها الإقامة بدولة أخرى.

وضحكت هذه المرة، إذ ماذا يفيد البكاء أمام ميمون:

ـ أيُحجر علي بدوري في زمن إمارة ابني؟! هل جننت؟!

و دنا أكثر من ذي قبل، و قال لك و لعله كان صادقا هذه المرة:

ـ لماذا يرغب الناس عن سجلماسة في أيامي؟!

حتى كبير علمائها "ابن مصلان الحفيد" ينوي الرحيل!

وتجاهلت سؤاله، وفي الرحيل إلى تهارت أخذك التفكير، ليس هناك من يؤتمن على تحقيق الحلم البكر، والحلم عادة لا يراود من يحققه، اعتزمت نصيحة ميمون ثانية فقلت له:

ـ أنصحك بالعودة إلى مجلس الشورى.

ـ تقاليد تهارت لا تعنيني كصفري.

ـ لن ألزم نفسي بالدفاع عن مثالبك منذ اليوم.

وحملق في وجهك:

ـ لصالح من تثورين يا أماه؟!

ـ لصالح البَعد الذي مات " جابر" دون أن يوصي به.

ـ وما لون هذا الهوس الذي يركبك منذ صباك؟!

البَعد في نظرك عودة إلى مشارف الفائت القريب، حيث أينع الدفء في لحاء النخيل، واحتمى القن بقرطاس الوصية، البَعد أبعد كاتب الحجاج من فيلق الفتح، البَعد أن تُرتطم خيفة التخوم، وتُدغم التيجان، ويتمركز النبض في وجه " شارل مارتل" ثانية.

حين توارى البَعد خلف أطياف الجارية "حُبابة"، بكيته في سرك إلى أن أصابك الدوار، وشددت عصابتك على رأسك، وردّدت في حنق أمام ميمون:

ـ وحده البَعد يبطل خرير الغواني، ويعتق السياف.

أفران الجناح كانت تعبق برائحة الخبز والمرقاز، وعبيد القصر شبه نشاوى، وآخر المتظلمين يستديم الانتظار، كبير الحرس نصحك دون أن يقبّل الأرض:

ـ الأمير يرفض المثول إلا أمام ذاته يا مولاتي.

أه منك يا أروى، إلام يفزعك الهمس في مروج الأباطيح المتموجة السموم؟ ويوقّع الندى على ظلال مقلتيك ضريبة مستحقة؟ إلام تعرّش في أوصالك أملاح الحسرة؟!

مسكونة أنت بالقادم، والقادم عودة تتعشق القَبل، كفعلك دائما تهامسين المعاين الممتثل للإنجاب، والماثل عقيم، و شقوق الضفاف يتبطنها سيل ديمومي في فصول القحط الكبرى.

تبكيـن؟!

ووفود الرواة العجزة تخترق السيهج حفاة، يدمي أقدامها حصى الهجير المتأجج.

تبكيـن؟!

ورضيع "طليطلة" ينشد التبني خلف تباريح الأديرة المستعربة حديثا، وقواعد الإنزال الغساني تطفيء شرارة الزنج في "البصرة"؟ بأياد بزنطية.

تبكيـن؟!

و "بامبارا" يحفظ وصاة أبي تمام في "عمورية" بالمسبق، ويعيد مباراة الصلب المنقولة جوا.

حلمك ظل أن تجعلي من تهارت، أو من سجلماسة، نموذج البَعد المشرق، ولكن حلمك، كما تأكدت أخيرا، لم يزد على أن يصير إبحارا نحو التيار الدافق، من جبال طبرستان إلى " أربونة " جنوب بلاد الغال.

نجوم حائرة ترنو إلى قافلة خريف محملة بأغاني "ابن أبي السمح"، ترصدها عيناك الواسعتان، سيرها كان يبعث على الضجر وهي تحتمي بشرائط أنهكها السفر، عبر مفازات الجمرك القومي المولع بتشمم الجنسية، ولقطات الجنس الخاطفة.

في قرف تتسمعين أغاني ابن أبي السمح، بيضاء محايدة، تفبرك قدود الجواري وبسمات النوافذ الموغلة في الخفاء والحذر، وسألت بامبارا:

ـ من يلحّن قصائد عمران إذن؟!

ـ عرضُها محظور في إخوانيات السمر الليلي يا سيدتي.

ـ وغزليات ابن حكيم في معلمته الأولى؟!

ـ مات قبل أن يحسن النسيب يا أروى دون أن يغنيه

معبد، وجميلة ويحي المكي وابن عائشة.

ـ وأشعار السمر إبان بدائيات النزوح نحو مخيم الصراخ المكتوم؟!

وسألت بامبارا فلم يجب بحماس كدأبه، يوم أغبر ذلك الذي استقبلت صباحه منذ حين، طالت ألسنة زوابعه أسترة النوافذ العلوية، واهتزت لعنفها سقوف الأكواخ الطينية المتناثرة على ضفتي طريق القوافل المنحني.

مزعجا كان الحلم الذي باغتك قبيل الفجر، خمسة فرسان ناصعي الثياب شارفوا حي الدباغين بسجلماسة، و في كبرى ساحاته أخذوا يقتتلون أعنف الاقتتال، حاصروا القصر، هددوك بالخروج،

كبيرهم ذو القلنسوة المزركشة أحسست أنه ترجّل عن جواده، وتسمعت خطاه الواثقة تقترب من غرفة نومك، دون أن يفتح النافذة ألقيته مصوبا نحوك قوسا ذا نبل مريّش، أفزعتك حدته، صرخت، لينقطع شريط الحلم، لتستيقظي.

ـ ماذا يعني هذا؟!

تساءلت، وكعادتك أطلت الصلاة، أذنت لبامبارا بالدخول مبكرا، فقص عليك الحلم ذاته قبل أن يسمعك، كدت تسألينه عن شعار اللون الأبيض، إلا أنك عدلت عن سؤالك، وتظاهرت بقراءة مخطوط مجهول التوقيع.

خلدك ساعتها كان ينبش شكاوى الأخرين التي أخذت تتخشب لهجتها، موقفك كان يبدو سالبا إزاءهم عكس دأبك، وصارحت البعض أن اندفاعك لا يتجاوز النصيحة.

عرائض الأحياء المكتوبة بسمغ الصوف، وسمن العناز الجرباء، تشهّر بكبائر قائد الحرس، تنقض أحكام القاضي، تتفكه بأثرياء السوق الخلفي، تهدد بالنقمة، وميمون يلج في اختراع قَبل مبتدع، تخافينه، قلت لبامبارا و كأنك تحادثين ميمون:

ـ السيف لا يخيف دائما.

قال لك:

ـ "يقتل نفسه من لا يعرفها".

وتلقاءك اندفعتْ " نداء القلوب" في غير لباقة، محرّمة الوجنتين، تظلل رموشها سحابة بلل:

ـ مولاتي مولاتي.

ـ ماذا هناك؟!

ـ سجلماسة تحاصر القصر، تطالب بعزل الأمير ميمون!

ـ سجلماسة؟! ووجوهها؟!

ـ يقودون نقمتها يا مولاتي.

ومن الباب دنا بامبارا وكأنه يعتزم مجابهة مجهول.

والتفت إلى " نداء القلوب" شبه مهتمة:

ـ ومن سترشحه سجلماسة يا فتاتي؟!

- ينادون بعودة مدرار، الأمير مدرار.

- مـدرار؟!

- نعـم.

واقشعرت نقاط من خريطة جسمك لكلمة العودة، ليس لأنك ترفضين مدرار، ولكن لأن للعودة جرسا خاصا في أذنك، وسألت نداء القلوب:

- وميمون يا ابنتي؟!

- يصدر أوامره لقائد الحامية.

ولمحت نداء القلوب أطياف بسمة على شفتيك المزمومتين، فشكت في ولائك الرسمي، وتدنى منكما بامبارا وقال:

- "بذور الخير تصعب زراعتها يا مولاتي".

وعصفت بحلقك تنهيدة قوية وأنت تقولين:

- لا يزال يركب المواجهة إذن!

لماذا ترفض الخارطة شروطك؟ تمنحك التواجد في حيز تحدده هي؟

تودين لو تصيرين من القوة بحيث تستطعين قولبة المرئي وفق رؤاك، ولكن للمرئي قوالبه الخاصة، الجاهزة، ميمون نفخ في المرئي من جديد، ورغم ذلك يوشك المرئي أن يلفظه.

وجاءت حماتك لتقول:

- ميمون قُتل، أو اختفى.

وسألتها في وداعه، فتشممت رائحة الإدلاء في عينيك، تواريت إلى جانب سريرك الفضي حيث يتخودد المهد، تُفتض اللوعة، تتلمسين آثار الرضاع المطحلب على البلاط الرخامي منذ عشرين سنة، و تنادين بأعلى صوتك المتعب:

- ميمون ولدي؟!

الحرف يُدغم في توجمات صوت ثكلى، وتطعنك قهقهة نصف شامتة، وتنثرين حسراتك تباعا على عيون مولعة بيمين الولاء الفطري، جماعيا واجهوك بالقول:

ـ ميمون قُتل أو اختفى يا سيدتي.

تأوهت وركب إغماء عاصف عينيك الذابلتين، وضربتك "تقية" ترفض الطواريء، دنوت منها يعتصرك تهجمك المفاجئ:

ـ قُتل ميمون ولدي يا " تقية"!

وقـالت لـك:

ـ قد يختفي فقط، القتل ترفضه الدعوة يا أروى.

لأول مرة تتلقين منها كلمة مخففة، ربما لأنك تجهلين زاوية خفية في مناخها الصاخب، هل تنطوي الأمزجة العنيفة على شيء ما مغاير؟

سألت نفسك، بالبحيرة الخلفية " تقية" تعقد مجلسا عائما، خطبت في بعض أعيان المدينة بلهجة متوقعة، لم تتسمعي قولها كما أعتقد قيم الأخبار، قالت:

ـ ميمون ابن أخرى، يتكلم لغة الاحتماء خارج الحماية،
في مقلتيه يتشجر تسامح مجلوب من مربعات جسور الإمداد
التي ألفت والدته " أروى" امتطاءها. يحن ـ رغم نزقه ـ
إلى أخواله، يجمجم العربدة في الخطاب الموسوعي،
وتدثره عواصف ذاتية التكوم عبر تعاريج الضياء اللاجئ.

وخلف ألواح مأثورة كتبت بخط رمادي بارز، دندن القاضي:

ـ ميمون ممزّج الأوصال، لا يصلح للإمارة يا مولاي مدرار.

وأشار مدرار على مجلس الأعيان بالجلوس.

ـ إنني أبكي فيه بكرا غير توأم أيها القاضي.

وتقدمت " تقية" حانقة هذه المرة:

ـ ولكنه أقالك أيام عزه.

وقف مدرار شبه غاضب:

ـ بل أنا الذي تخليت له.

واشتطت " تقية":

ـ لتقطع الطريق عن ولدي عن ميمون الثاني؟!

ـ لأنه تمرد قبل أخيه يا " تقية".

وقال القاضي دون أن ينظر إلى الألواح:

ـ حسبنا بن " تقية" يا مولاي، حسبنا

ميمون واحد، ألا يكفي لحكم جيلين كاملين؟!

الشك يطوق حنايا مدرار، لأول مرة يوقّع إقرارا بالخطف نصف مبتسم، مع أنه يتوجس رحيل أروى، وأروى تمقت أنصاف الولاء، عيناه المركزتان تنتزعان آخر ومضات القاضي في استنطاق مكتوم، فيدعو بماء للوضوء، اقترب مدرار من "تقية" مرتجفا وهامسها:

ـ هل أُعدم ميمون الأول؟!

و تزوّت خلف سمرتها، كانت " تقية" بدورها رائعة، تبدو السنون المستهلكة من عمرها، وكأنها عاجزة عن الإساءة إلى مفاتنها ذات الخصوصية الفيلالية، وحاولت أن تحاصره بعينيها الدائريتين و خصلة غرابية اللون تطل من أعلى جبينها:

ـ نحن ندرك مقدار انصراف قلبك نحوه، لذلك اكتفينا

باختطافـه يا أميـر.

وليكمل دنـا القاضي من مدرار:

ـ غير أن الأمر يقتضي كتمانا في نظرنا يا مولاي.

ودون أن يلتفت إلى كلمات القاضي، تنهد مدرار وهو يعاود الجلوس، ثم انفجر ضاحكا:

ـ " تقية" والقاضي يناهضان الاستبداد؟! من يصدق؟!

وتلمّظ القاضي، في حين ابتسمت " تقية" مجاراة لبشاشة مدرار، الذي عقد حاجبيه وسأل:

ـ ولكن كيف أختطف؟!

اختلست " أروى" أمرا حاسما:

ـ أكتب إلى أبي الأفلح يا بامبارا! أكتب.

ـ حجزوا أقلامي يا مولاتي.

ـ من إحتجزها منك ؟!

وارتجفت شفتاه المقلوبتان، دون أن يهمس كما توقعت منه، ودنا منك بخطو متعب، وقال في تأتأة غير معهودة في صوته:

ـ هـي هـي.

وأرجفه صوتك هذه المرة:

ـ من ؟!، " تقية"؟!

ـ أعجز عن تحديد الأسماء يا مولاتي.

ـ ولكنك على تحديد الرؤى أقدر؟

ـ ربما ربما، فالبعيد قابـل

للقياس عكس المتشكل يا مولاتي.

ـ يربكني إبهامك أحيانا يا عم.

ـ جابر بن زيد ذاته أربكه صهيل الحجاج.

ـ ولكن يزيد ابن أبي مسلم، كاتب الحجاج اعتقد ذات مرة؟!

ـ عن طريق الإبهام يا مولاتي، فالغامـض

فقط هو الفيلسوف يا أروى.

تعصف الكلمات بزاوية الدهليز غاضبا، كان مدرار هذه المرة تركبه الصدمة، ينتعل الارتجاف ساقيه، يذرع الغرف الفارعة في هدير مزمن، كاتم للصوت، وانتعشت " أروى" لأن أمر ميمون يزعجه، فتدنت منه في حذر:

ـ إنك تمارس مهنة الأب بحق يا مدرار !

ونطحتك نظراته المريبة، فإلتقطت بعض كلماته الهادرة غصبا:

ـ شقيقك أبو الأفلح وابن الأغلب يجنحان إلى السلم يا أروى؟!

وزممت شفتيك، واستأذن القاضي في العودة إلى اللوح الخلفي، وقال:

ـ ينفخان في معاهدة "إبن حاتم" ضد سجلماسة يا مولاي.

وابتزت " تقية" تنهيدة ملكية:

ـ وعبد الرحمن الداخل يبارك اللقاء يا للغرابة!

وبادر مدرار وكأنه تذكر:

ـ لا تنسي أنه مكث بتهارت وقتا طويلا، قبل اجتيازه إلى الأندلس.

وأكمل المؤرخ الأعمى:

ـ كإدريس الأول تماما يا ابنتي.

والتفت مدرار إلى الزاوية الأخرى وقال:

ـ ألا تنبسين يا أروى؟!

ـ سارحة عبر اختطاف ميمون يا صاحب الإمارة.

واخترقتك صيحته، نابية غاضبة مثقلة بما يشبه الحقد:

ـ ومؤامرات شقيقك أبي الأفلح أين محلها من تفكيرك؟!

وحدك تشمين لفائف المهد المختزن منذ أزمنة الصبا، تكتمين الإصابة نافذة، وحولك يُمتهن الموجع، مثقلا بالطعنات، تلجين غرفتك الخاصة، و"تقية" ترفل في ثوب يماني التواشيح، وتناغي ميمون الأخر من بعيد:

ـ أنت الأقوى، وأنت الأقرب، وأنت الأنسب، وأنت

سليقتك تمقت الاستفزاز، ترفض التطاول، ربما لذلك فقط بادرت مدرار بقولك:

ـ وما الضير في اتفاق أبي الأفلح وابن الأغلب؟!

وأسرع القاضي، لقد كان معبأ بإجابة فورية:

ـ بل قولي على حساب من تم ذلك يا أروى؟!

و تقدم منك في حركات بهلوانية، ولحيته تمشط علوي صدره:

ـ شاركينا السؤال يا ابنتي؟!

وفي لا مبالاة يعرفها مسبقا قلت:

ـ تم لحسابهما وكفى.

وغمغم مدرار وكأنه ينعي عليك تواضع ذكائك:

ـ وكفى؟!

وقلت في تراجع:

ـ تمنيت لو حظي اللقاء بحضورك أنت وإدريس وعبد الرحمن؟!

وقهقه مدرار بصوت مرتفع:

ـ لماذا ؟! لنجدد البيعة لهارون الرشيد جماعيا؟!

وانتهرته في قسوة كادت تخرجك عن أدبك المعروف:

ـ أنت تعرف موقفي من بغداد يا مولاي؟!

وقبل ان يكمل ضحكته:

ـ واذن؟!

ـ دعوة الإجماع لا تتم دائما بعنوان البيعة.

وتأملك مدرار:

ـ أروى، عاجز أنا عن الإحاطة بمرامي تفكيرك.

وابتسمتِ:

ـ حين يتعلق الأمر بالذي لا تهوى فقط يا مولاي.

وتنهد مدرار وقال:

ـ معاهدة ابن حاتم أصلا كانت تكتيكا عباسيا مكشوفا يا أروى.

وقال القاضي مؤيدا:

ـ استغلت بغداد نزعة السلم في شخصية والدك يا أروى.

وقلت لهما:

ـ عكس من استغل نزعة الحرب من ولاة القيروان قبل ابن حاتم أيها القاضي.

وكاد القاضي أن يصدّقك لولا أنه انتظر رأي مدرار، خارج الباب تواريت، من تحادثين والنخيل ذاته يهتز في انشراح بالعودة، علام تقرفين وقد انفضّ محترفو الإصغاء من حولك؟

والعم "بامبارا" لا يتجاسر على الإشفاق.

في عينيك الكبيرتين مبكرا قرأ الأطياف حائمة، فاحتفظ بسرك لنفسه، وكلماته عادة لا تُعطى حمولاتها كاملة إلا معك، ألم يحدثك عن صوفيات حكيم الزنج المعتصم بالأدغال، الذي لا يصطحب في خلواته الموحشة، إلا شبلا من أيتام السباع الشرسة؟

وبامبارا كان يكتم وصايا الحكيم إلى أن استنطقته فاطمأن إليك، ردد على مسمعك حكمته الخالدة:

ـ "الازدواج منتهى الفطنة".

وفي صدق سألته كعادتك:

ـ ولم لا تسير مزدوجا يا عم؟!

وتراجعت نظراته:

ـ مزدوجا؟!

ـ نعم، على اثنتين كحكيم الأدغال.

وفغر فاه دون أن ينطق، فسابقت نبره:

ـ وحكيم الأدغال ذاته، لم لا يسير مزدوجا وقد نصح؟

ولم اكتفى بالراسخ دون الماثل؟!

وارتبك بامبارا.

ـ أتراه يدعو إلى غير طريقته؟!

ـ أنا التي أسألك.

وقلب شفتيه الغليظتين:

ـ يدعو إلى الازدواج ويسير على واحدة.

وقفز إلى جوارك فرحا:

ـ سيدتي هو ذا السر فيـه.

وقلــت:

ـ ربما عكس من يدعو إلى واحدة، ويسير مزدوجا.

بامبارا وجد حلا لإشكاله في كلمتك تلك، انصرف يلاطف تكشيراته كصعلوك نازح، خارج حلبة العدو الريفي، وحده تتخضل لحيته المتجعدة، ويبكيك في "ميمون" الأول، يتقزّم، يتقمص، التعاطي سليقة حذرة، ويمخر الدَّوار أبنوسه الآخذ في التمثل إذا انتصب.

ـ تقية، أعلني أن العبيديين تبنوا عملية اختطاف ميمون بن أروى.

كان القاضي يضحك بلغة أخرى، دون أن يتشرب النبأ احتماله.

ـ اشترطوه في مقايضة مفتوحة الأجـل.

وأنت باكية، تنثرين تسريحتك الهندية في غير إشفاق، تجهلين انصراف القاضي من جناح" تقية".

ـ سيدتي، من يتعاطى الفطنة في زمن الإغماءات الكبرى؟!

سأل بامبارا نفسه، وتاه البصرالزائغ خلف ارتداد الصوت المعقوص، وأسرع نحو الشرفة المذهبة السبائك، ليحيّ بدوره موكب السلطان القافل تلقاء رحلة صيد الفيلة.

ـ أكتب إلى أبي الأفلح يا بامبارا، أكتب.

ـ كلاب الصيد تشتم رائحة الرقعة يا مولاتي.

ديوان الأمير ولجته تجرجرين هوامش شوق يتقتم، تتقشمرين في جلستك المأذونة قبالـة "مدرار" باكية كنت، وعيناه تحاصرانك في استنطاق مكشوف، وأدنيت مجلسك منه، وحاولت أن تستقرئي لغة الأيام الأولى:

ـ أعرف أن مجرد عطفك عليه يثيرهم، ولكنني جئتك في أمره.

ـ من تعنيـن؟!

ـ ميمون ولدك، ولدي.

ـ ومن أخاف ثورتهم؟!

وتراجعت عيناك، وعارضك سؤال شارد، فعدلت عن الإدلاء به.

ـ ولدي يا أمير الصحارى.

ـ تأيدك المسبق لمعاهدة " إبن حاتم" يريبني.

ـ أرفض الحديث خارج شأن ميمون ولدي.

ـ حتى وإن كانت عودة ابنك على حساب موقع زوجك؟! فمن تختارين يا أميرة "ميناس"؟!

ـ أختاركما معا صدقني.

وعاودتك مقولة الازدواج التي جاء بها بامبارا، من لدن حكيم الزنج، والقلب عادة لا يتكافأ بداخله أمران، ونهض مدرار قلقا:

ـ كلاكما تنتصر لابنها على حسابي، وقد أُجبر يوما على إعدام الميمونين معا، في لحظة غضب قصوى يا أروى.

الفصل الرابع:

"مع سابق الإنشاد يا حكيم"

الفصل الرابـع

" مـع سابـق الإنشـاد يا حكيـم"

ما أن استشعر الأصلع خفوت صوت القصبة، حتى أقبل مسرعا نحو المدّاح، وعالج يده بقطعة نقدية، قال قبل أن يتأملها:

ـ فن "المدح" كالإنارة إما أن يُزوّد مسبقا

أو ينقطع التيـار.

واستطال "القصاب" نغما خاليا من الإيقاع في انتظار إشارة ما، وتباعدت عن قصد دقات الدف المولع بالرجة، وأخرج صاحب المحفظة قطعة أخرى، قذف بها في اتجاه موقع المدّاح من بعيد، فتضـاحك:

ـ دينار واحد وأقذف به؟!

وخطا في اتجاه الشاب وهو يقول شبه غاضب:

ـ دينارك لا يلزمني اغراؤه يا ولدي،

الأجدى أن تقذفني بحجر فلعله أفيد.

ـ هو كل ما في حوزتي يا سيدي.

ـ إذن لقد شملك انسياب "القَبل" يا ولدي.

وفي خضم القهقهات المتتالية، اخترق صوت المدّاح هدير الحلقة، فاستعادت سكونها.

لم تعلني تفضيلك إياه عن أثرياء تهارت، وضباطها و أكابر علمائها من خريجي معاهد " نفوسة"، لم تعلني ذلك، فلقد أعلنته الصحافة قبلك، في تهارت، وسجلماسة على حد سواء، ولكنك قلت بدون مقدمات، وفي لغة بكائية تمقتينها:

ـ يا أمير المضيقين وشلالات الدغل القاصي.

نظره يخترق ضواحي قامتك الملتاعة، يقتنص شحوبا تلبد على وجنتيك، يطارد علامات غير مستقرة تعكسها عيناك الواسعتان، وبأحرف أولى يعتلي الخنوع عيلاء البسمة، لأول مرة تثبتين أنك لا تحسنين قواعد الضراعة، ويركب ضجره مغازلة حدقاتك المتموجة في هروب شبه مكشوف.

ـ الأمير في حالة إصغاء كما ترين يا أروى.

ـ جئتك في أمر "ميمون" وكوماندوهات الفاطمي، وبيان الفجر المعلق، و.

وقاطعك ربما لأول مرة، هل قاطعك فعلا؟ تأكدي إذن:

ـ ولقاء أبي الأفلح بإبراهيم التغلبي يا أبنة الرستمي؟!

ابنة الرستمي! هي ذي لغة القلب حين تسدها الريبة يا أروى.

وجازفت بالقول:

ـ ولدي يا أمير سجلماسة ؟!

ـ لقاؤهما تسبب في تجميد تحالفنا مع تهارت، كما أعتقد أنه بلغك.

وتقوضت قامتك الصفصافية:

ـ تجميد الروابط؟!

ـ كان على التحالف أن ينسف معاهدة ابن حاتم، وقد حصل العكس.

وحاولت أن تتعرفي عليه أكثر، لم يكن "مدرار" المسكون بلقائك إذن، قال لك أن الصحافة بكاء لا بد منه، وهو ذا يبكي مع الباكين، لماذا نبكي حين يكون الأحرى بنا أن نضحك؟ تساءلت وافتقدت بامبارا ليجيب عن السؤال المعلق.

وتضاحك الأمير دون أن يلتفت إليك وقال:

ـ على أية حال أبو الأفلح يواجه انتفاضة عاتية، يقودها

"ابن فندين" وأعيان تهارت يا أم ميمون.

وتمنيت لو يستطرد، ابن فندين تظاهر بالتحالف مع أبي الأفلح أيام البيعة، وعلل المنظّرون هذا التحالف بتعلة المصاهرة، فقبيلته قد صهرت لأبي الأفلح، فكيف تحول الولاء، ولصالح من هذه المـرة؟!

إن بعادك عن تهارت لم يفقدك الدراية بسيرورتها، وتشجعت على السؤال خارج سياق المقابلـة:

ـ وماذا يريد إبن فندين أيها الأمير؟

ـ حاول اغتيال عبد الوهاب أبي الأفلح ولكنه أخفق.

واستعدت سكينتك، دون أن تتأوهي كما اعتقد مدرار، هو ذا السر فيك يا أروى، دائما تتصرفين عكس ما يعتقد المنتظر، أهي سليقة أم دهاء؟

بامبارا صارحك بمقولة حكيم الزنج، قال ذات مرة وقد أتكأ على جذع شجرة "عريش":

ـ في السير عكس المدار دائما شيء ما.

بامبارا يسترجع وصايا الحكيم في ترويض الأسود الناشزة، يوميء بسفلى شفتيه، يتصنع الوقار المكتسب كدأبه، يحيّ " تقية" ونعلاها الفرعونيان يصفعان أعناق البلاط المهتز، يبتسم القاضي قبل أن يلتفت نحو عربة الألواح المجترة خلفه، فيأمر بتفتيشه من باب الاحتياط. ودخلت " تقية" تحمل فيضان غضب، ودون أن تجلس واجهت مدرار:

ـ بلغني أن سموكم زار القلعة (السجن الأميري)، و خامركم الإشفاق في دوامة البلل المتغضن، وأربككم الضمور أثناء المغيب الرابع لاختفاء ميمون، فارتحلت الأسماء صوب الرنة، وأقلع في ثناياكم الزفير؟!

وهز مدرار رأسه في تثاقل:

ـ وأفكر في الإفراج عن لسان "عبيد الله المهدي" ذات مساء لأ تأكد.

ـ وبيان القاضـي؟!

ـ قد يُلغى بما بعده كشأن أي بيان.

ـ تتحدثون عن البَعد يا مولاي؟!

ـ لا تجنّحي الكلمات يا " تقية".

ودون أن تتأوه انغرز بصرها في صدار القاضي الذي لاذ بالصمت، وتلمظ قيّم الرقيق الأسود، و ركب النبض إجفال مستحدث، وغادرها مدرار تترنج على منكب القاضي، الذي نادى بخامس الألواح المأثورة، وأوصى الصيرفي الخاص بإتقان العصير.

انسحب القاضي يجر الألواح في اتجاه ما، فقبّل بامبارا الأرض أمامه، وعاود القاضي تفتيشه بنية الاحتياط دائما، وصاح في دهشة وقد تبعثرت الألواح داخل العربة:

ـ ماذا؟! قرطاس غير مختوم أيها الأسود؟!

ارتجف بامبارا حسب شهود عيان، وتقدمت" تقية" في ثبات فاختطفت المظروف الملولب من صدر العم بامبارا، وهرعت داخل الحلقات ومكبرات الصوت المصرة:

ـ خيانة عظمى، خيانة عظمى.

قالت " تقية" ورددت الجواري في تعب، وزمجر القاضي في استلاب كلي:

ـ خيانة، بمقتضى اللوح الرابع يا سيدتي.

ـ هل كيّفتها بما فيه الكفاية؟!

ـ بلى بلى، باتفاق شرائع الرومان وحمورابي،

ومجلس إفتاء الكوفة يا مولاتي.

ارتج جمع بالحديقة، وهز قائد الأركان رأسه مصدقا، أُصفد بامبارا بأرطال من السلاسل الصدئة، و أخذ يستنطقه كبير مدمني الكلام الهامس، وأُعلنت صفائح جسمه الصلدة مناطق مفتوحة، كان يردد كلمات الحكيم التي حفظها عن ظهر قلب، وأفقده السياط وعيه فأخذ يترنم بأشعار "عمران بن حطاب" جهرة على أنها غير محظورة.

ـ ناوليني القرطاس يا " تقية".

ـ خذ يا مولاي تفضل.

((من أم ميمون إلى الإمام أبي الأفلح، لقد افترس أتباع الفاطمي بكورة أيامي.أروى))

ولفّ بصر مدرار قامة القاضي:

ـ لكأني بالأمر يعني الفاطمي وحده؟!

وارتبك القاضي، وقد هاجمته عيون " تقية" في انشداه أكثر، وقالت:

ـ ماذا يعني مولاي؟!

ـ أعني أنه مساس بسمعة الفاطمي وهذا يخدمنا أيضا.

عربد القاضي في صمت، وتمنى لو يحتجز الحرس نعلي أروى، وخمارها، ويزج السياف ظفائرها، رأفة بها من مغبة الانتحار.

وهز مدرار رأسه:

ـ على أية حال، يحظى الأسود بفترة تأديب لكتمانه سرا مهربا.

خلف بامبارا تنتعلين ثرى الأحزان، والعم يحتضن الاستواء، وحين رقص مفتاح الوصيد المجهول ليُدخل سجن الصخرة، يتوج " ميمون" الثاني، ابن " تقية " وليا للعهد.

تتسع المغارة في نظر العم، وتتوافد مراكب الأشباح صامتة، وعلى منعرج الصخرة الأسطورية، ينهمك "عبيد الله المهدي" في إملاء أعماله الكاملة، فيشير على " بامبارا " بالإصغاء.

ـ من المرأة الجاثمة خلف الوصيد؟!

تساءل الفاطمي برنة صوتية أخرى.

ـ مبعوثة أميرة ثكلى تستعيد وحيدها أيها الثائر.

في مسكنة أجاب بامبارا وأصابعه تبحر عبر جدار الصخرة في ظلام، وتنتحر بقايا الأحرف خشية أن يجس " المهدي" مرادفات الغليان.

ـ من المدعية يا كاتب الوحي؟!

و ينفذ نصل السؤال إلى أعماق الأكمة الفاصل بين القبيلتين التوأم.

ـ من سبايا النهروان أيها الحكيم.

وتدخل بامبارا قبل أن يرتب كلماته:

ـ إنها أميرة وليست بسبي أيها الكاتب.

قالها واختتم ثورته، وهو يتصيد مجالا للجلوس، وفي حنق أردف الكاتب:

ـ أليست بابنة الرستمي، سبق لي أن رأيتها أيام

الجوسسة الأولى بتهارت أيها الحكيم.

وقال عبيد الله الفاطمي:

ـ قاوم الصراخ بالصمت أيها الأسود.

شاعر الأدغال الكبرى يقتحم التهجئة مصلوبا، يمنطقه الكلام الهاجس، وفي عزوف يهتز رأس الأسير السجلماسي، ويحادث السكون.

أروى تنصرف مبعوثتك ليستعيد الفاطمي بعض وقاره؟ تخلف العم بالضواحي مشدودا إلى صخرة الأربعين فارسا، وقد بكى فراقك كما لو كان ميمونا ثالثا.

لولاك لأدرك أن للمغارة السحيقة وجها محببا، غير واضح القسمات، ولكنه يستهويه لينتبذ الجميع، ليلوك أشعارا مهربة في خلوة طوال حياته، ولكن هذا الفاطمي يستهجن السماع بدوره، كلهم يريدون آذانا في حجم البحار، وألسنة مبتورة لا تنطق.

ـ واصل دعوة القلم يا أبا القاسم.

قال عبيد الله المهدي:

ـ أعد قراءة نهاية النهاية.

وقرأ كاتب الوحي بصوت سمعه بامبارا:

((العرب قبل اكتشاف عبقر))

وواصل الفاطمي إملاءه:

ـ أكتب:((إفحام المُحاجج، في ما بين العصمة والحصانة من وشائج))

وتقدم منه بامبارا غير مقاطع:

ـ وولد أروى يا ثائر الجنوب؟

والتفت إلى كاتبه، الذي هو ابنه:

ـ أنشدني حقائق " الكميت " يا أبا القاسم.

الفاطمي أمر كاتبه بالإنشاد، القصائد تسرح عبر أزمنة الظلام، تتسدر أمنيات القادم المجهول، و ترتخي أثداء الصخرة الأسطورية في انقباض أحيانا، و بامبارا يستحيل كومة من رماد، ضمن إفرازات القتامة المبتدعة، وتحت طائلة الإرجاء العفوي، تسرح دموعك يا أروى، و محامي البلاط يتغزل بأخر العقود اللؤلؤية، والقاضي يشترط صفة مثلى للتعليل، و بامبارا يستعصي فقه آلوان الإدانة، يجهل استنزاف العقيقة بعد العقد السابع، قال:

ـ يتوج ولي عهد؟!

وتجاهله عبيد الله، فأصغى إلى أبي القاسم.

ودنا بامبارا من عبيد الله وقال في تحفظ حماسي:

ـ الكميت زميل الطرماح أيها الثائر؟!

بين الأصابع تنفلت الكلمات، تتحجر أغصان الشخير، يتشخص المهد على أعتاب أثيريات الفرحة المرتطمة أبدا بشيء ما.

ـ تهيم بأيام العرب إذن أيها الأسود؟!

سأله عبيد الله المهدي، وخفقان موغل في الأماسي يتطوب، وتهمس جدران مكتوبة بآلاف اللغات الميتة، الفاقدة للنطق من حوله.

ـ في غير العرب أيها الثائر.

يعاودك التشنج، تتأوهين في تنازل مرتجف، تتلكئين في التقاط الأنفاس، ومغنّي الصخرة يتقمص الإغفاء بحذر.

ـ أنشدني لأنام يا أبا القاسم.

أمره الفاطمي، وقد تمدد قريبا من زاوية منعزلة يلفها الصمت والظلام.

ـ الأمير مدرار لم يقتنع بإدانتي.

أخذ بامبارا يهذي وكأنه يقاطع صوت أبى القاسم، وناهضه عبيد الله بقسوة غير معروفة عنه:

ـ وما إدانتك أيها الأسود؟!

ـ اسمي بامبارا أيها الثائر.

وابتسم الثائر على مضض، وقال:

ـ هي قبيلة معروفة فيما ندري يا صديقي،

ولكنني أنتظر جوابا؟

ـ أُدنت بإفشاء سر اختطاف ميمون بن أروى.

وتلكأ عبيد الله بالجواب، ساعتها كان خبراء العروض يبحثون نتائج التشريح الأولي، وقد أطربهم موشح في تأبين الأمير، ثريات القصر تنطفئ تباعا، وزمجر صوت خشن في أزقة سجلماسة النائمة:

ـ مات مدرار، بايعوا ميمون ابن " تقية " مع الإشراق.

وفاجأه النبأ فأسرع إلى عبيد الله:

ـ مات مدرار يا نزيل المغارة؟!

ـ مـات؟!

وسكت بامبارا إلى جانبه، ليضيف عبيد الله:

ـ عادة لا يفتقد البلاط ميتا.

ـ ماذا تعني؟! هل مات بسبب عدم اقتناعه؟

ـ الشك من الكبائر يا بامبارا.

بامبارا لأول مرة يفكر بشكل مغاير، ماذا يعني موت الأمير مدرار غير إدانة أروى بدورها؟ هل سيحدث هذا؟! وقال عبيد الله وكأنه في لحظة توافد خواطر:

ـ قد يمدد القاضي وقف التنفيذ، نزولا عند دموع الوصية.

ونبر أبو القاسم:

ـ وأجير الاستنطاق يشتم عصيرا مـا.

ولاحظ بامبارا:

ـ ولكن أروى تعاودها نوباتها أيها الثائر!

وزفر الفاطمي في تذمر:

ـ أبلغها أن تنتظر، فلسوف يسبق النبأ أرهاصه،

أبلغ أميرة "ميناس" بهذا.

خارج المغامرة ينكفئ الفعل، يعلو صخب نوافذ "تقية" المزدانة، بثريات سمسار من مدينة "البندقية"، حيث ينحني الدهقان خلف كوب نحاسي المقبض في صمت فاعل.

ـ بموت مدرار ينقشع خطر الإفراج عن الفاطمي.

أكدت " تقية " لمحدثها في عزم، وراق القاضي أن يستغور الحديث قلاعا شبه محايدة.

ـ تقولين بموته وقد اكتفينا بعزله؟!

ـ وما الفارق يا قاضي سجلماسة؟!

يتضور الخليفة الجديد، فيصدر أمرا استثنائيا بشيء ما:

ـ سمو الأمير، ميمون الثاني.

أستهل القاضي عهدا جديدا، فزجرته " تقية" في عنف غير مسبوق:

ـ ميمون الأول من فضلك، التاريخ عادة يجبّ ما قبله.

يقذف بالكوب على خد البلاط اللامع، وتضمحل الفرجة، ويكتب المؤرخ الأعمى أن " تقية " استقالت فور الحادثة، الجريرة تفترش أنداح الحيثيات المخملية الحواشي، وتُنبت بالغور السحيق أشواكا حنظلية المذاق، وتجدد " تقية " التماس الإعفاء، لتذكر أنها في أيام حملها بالأمير، كشفت عن توثبات المغص الموسمي، الذي أطاح بنظريات بائع الأعشاب البرية.

ـ الأمير يدعوك يا مولاتي " تقية ".

استدار الموكب العائم، وتبادلت الوصائف متبقيات التحية، ومسح عريف الحرس على زجاج رمحه استعدادا للجلوس، وقبل امتطاء العرش المسيج باللمعان، تساءل ميمون صادقا:

ـ أين خالتي " أروى" يا أماه؟!

وأجفل الأم سؤاله النافذ بدون تقديم مهذب، فتزوت منكفئة:

ـ تنتظر أيها الأمير، خالتك في وضع المتلبس.

قال القاضي في أدب قانوني، وعيناه تلمحان سطورا على اللوح الثاني، ثار الأمير، أزعجه التداعي فاستحضر حليب اللبوءة السوداء ذات الأشبال السبعة:

ـ يا قاضي القضاة احضروها حالا.

وانقذفت كلمات "تقية" شبه مصلوبة، مرتجفة:

ـ ووصية والدك الراحل مدرار يا مولاي؟ وصية ميت!

ـ وصية بماذا؟!

ـ وصية.

ويلهيه الفعل، وعميد الشعراء يستبكي الرواق، والصيرفي الحر ينتظر الإشارة بالدفع، ويقحمه السؤال فيستفتي الإدانة.

ـ فيم كانت الوصية يا أماه؟!

ـ جريمة استجداء مدد عسكري يا مولاي!

ـ المدد؟! ضد من؟!

ـ ضد الأمن العام، ضد سجلماسة.

بكت "تقية" في حضرة الأمير الابن، وتأوهت الأحرف، وطال الوجوم أنفاسا تحتمي خلف صقيع النهر المكتوم، استفاق بامبارا من غفوته العابرة قبل الترويض، وارتشف القاضي آخر الوصايا، عيناه تمشطان خصلة تائهة على سدغ " تقية " فتلاحقه بسمة وقار منها، وبنصف عين تومىء إلى الفضاء الطلق بإشارة ما، وتتلمظ.

وتساءل الأمير في براءة متقنة:

ـ لا شك أنها طلبت هذا المدد من القسطنطينية فهي ملجأ كل متمرد؟

تمتزج ضحكات مكتومة، تنتفض لوقعها الخصلة الحائرة على الخد الوهاج، يستأذن الدهقان لسبب ما، و تُسبل الأجفان على سحنة القاضي، وسيما لا يزال يتشرب ريعانه وفود الكهولة في يسر.

ـ وولدها أيها الثائر؟!

يلحّن بامبارا مقطعا مصغرا " لعمران " فتشدد الحراسة، وتزرع آذان وقائية، وإيماءة صفراء يتسلمها النفير الاحتياطي.

ـ أخطر من القسطنطينية يا مولاي.

يجيب القاضي وعيناه تقبلان الخصلة من بعيد، والأمير تستبد به رعشة في تضور، فيستنهض آلاف الأخيلة السابحة في فلك الارتداد، وتنحسر الصيحات على قارعة الأنهج المفعمة بالترجي، ويهتصر المقل تودد محتشم.

ـ قد تطلب ذلك من بغداد إذن،

ومن البرامكة بالذات؟

رجة يعكسها الوصيد في الهزيع، فيرسم الرواق الحريري بزة عسكري يحمل البغتة، وتنشده خلفيات الزوايا المخضبة بالحناء، ساميا كان الضابط الذي دخل منذ حين، يرتدي طواريء الحرب، ويقبّل الأرض في أدب جم، ويقول:

ـ أقلع عبيد الله المهدي في إضراب مفتوح عن الكتابة.

وقالت "تقية" في بشر:

ـ هذا أفضل لتموت في صدره وصاياه.

يُمنح الظلام خاصية التأبّد، يتكوم ضباب الصخرة، ينشد الدفء في بقايا الأنفاس المشرأبة نحو السكون، والأمير الشاب يبحر خلف سؤاله دائما:

ـ من القيــروان؟!

وتجهش "أروى" قبل أن يزم بامبارا شفتيه في شبه امتعاض، وبالأشرعة الوهنة يتشبث إبحار عاصف.

ـ أفظع من القيروان، وبغداد يا مولاي.

يفكر الأمير في شق نهر من الحليب المُحلّى، قد تينع على ضفافه أخيلة الشعراء، ويداعب بريق أمواجه تألق العذارى، البصر الحائر ينتجع تلقاء التوثب حيث يحلق خليفة " صقر قريش" في تصاريح مضائق الأندلس المتموجة الطحالب.

الشفق يدلهم فوق تخوم المجاهل النازحة نحو الجنوب، ليرسو على طريق الذهب الإفريقي الخام، وينكفيء الزجر قبل أن يبرعم.

انفضّ مجلس الصبيحة يحمل السؤال، وتدنّت صفوف لم تتعود هجمة الأمام، ورددت الصخرة آنـات " الحميري" من آلاف الأميال الموغلة في اللحاق.

زوايا الرواق تختطف ضحكات " تقية " حين حادثها قائد الحامية في إجلال، وتسابق دبيب مجهول الروافد إلى حلقها، وفي مخيلة الأمير تنمحي الثغور وتتبدد تباشير الاحتماء، فيقهقه لبسمته الجمع الموقر، وتركب الإشارة عباب الاستكشاف، ويهدر الأمير:

ـ القسطنطينية، وبغداد، والقيروان كلها محايدة،

فمن أين إذن تتزود " أروى " بالأسلحة؟!

على الخارطة تتحلق بقع قاتمة، استعرض الأمير وحدات أقسمت على الاقتتال حتى الموت، و ألفت ملاعبة الأسنة في أجنحة النرد الليلـي، وعلى عتبة الصخرة ينتحر السؤال.

ـ قد يتعلق الأمر بقرطبـة؟!

الإضراب يلتهم الأحايين، وأروى تتناكف عن الاحتجاج، تلغي عرائض الاستعطاف المبكر، بامبارا يدون قلامات الوصايا المهملة.

ـ أهول من قرطبة أيها الأمير!

أكد قائد الحامية قبل أن ينصت، والأفق ينذر بأعراض حمل ما، مجهولة النسب والتلوين، تنفذ إلى أحشائه من خلال عتمات الدهليز الصخري، المنحوت بأظافر الناخبين على القانون من عهود حمورابي، وصراخ أطفال تتسقطه أذن عبيد الله المهدي الفاطمي، من أقاصي الآكام العائدة إلى الزمن الأول، وكاتب وحيه يلتمس النسق في لفائف التضاد الفطري.

ـ عودوا إلى ما كنتم عليه قبل البَعد.

تلمظها بامبارا في إشفاق زنجي، خال من الإيقاع الفولكلوري، فتشرّب حكيم المغارة أزيزا محتدا مصوبا.

ـ وهل تحمل عودة للبَعد أيها الثائر؟!

سأله بامبارا فانتفض في وجهـه:

ـ لا أعرف واحدا بهذه الرؤى.

أجاب الفاطمي، وبكى بامبارا فبكى لبكائه أبو القاسم في سره، وانتصب يتوق إلى همسات الفاطمي، بعد أن تلا فصولا " أسدية " من نظم "الكميت".

ـ وولدها المختطف؟!

وتجاهله كما أعرض عن سؤاله.

بامبارا، يعاودك السريان صوب مجاهل القَبل الثابت، بمخيلتك نكصت تستقريء خطوط صباك الموغلة في الإنمحاء.

بامبارا، لم تأت من الجزر المغطاة بجدائل الأغصان الكثيفة، الطرية الثمار، حيث يتجول نخاسو "الماندونغ" بقطعان الرقيق الأسود، في اتجاه الأطلسي نحو أراضي الفرنجة.

لم تكن أيضا صغيرا بوشيميا، لتوأد قبل الفطام خوفا من المجاعات الموسمية الرتيبة، فقط كنت تحسن رعي ثورك ذي السنام الهرمي الشكل، كما لو أنك أمير "با نييوري" في التاسعة من عمره، على حين تفزع والدتك الدرداء إلى انتقاء الحشائش المروضة للسلق، وصغار الجنادب قبل ميقات الإفطار.

أهالي الضواحي يتعشقون مادة الملح، أكثر مما يتعشقون مادة الذهب والجنس، هو ذا ما تفتأ تذكره، أخوك الأكبر قيض بصاع ملح من إحدى قوافل الداندي، المقلعة صوب السودان.

صغارا كنتم تفرون تباعا، متخلين عن ألعابكم الصبيانية، حين تقع عيونكم المثقلة بأعراض التفويد، على طابور الباعة المتجولين بأحمرتهم المحملة بالملح.

ألم تضرب أنت، وسيكا زميلك، وسدار جاركما، عن تناول الملح في الطعام، لأن الملح وباء الأطفال؟

وحين أقلعت بك قافلة سجلماسة، لم تتوان في اتهام والدتك بتدبير مؤامرة الملح ليلا، كان سيكا قد بيع قبلك بيومين، وسدار يفكر في الهرب إلى حيث لا يدري.

بامبارا، لم تدرك ساعتها أن الموقف أربك الوالدة المسنة، وأنها زجت جدائلها المتجعدة فور إقلاع القافلة، وارتدت جلد البقرة ذات القلادة السعفية، الملقى منذ سنين غطاء لملجئ الشجر، لقد قضت عامها ذاك في جلد بقرتها باكية.

وسؤال والدك الكهل ألا تزال تذكره؟ وقد استلم صرة من النخاس الأكبر:

ـ وما بداخلها؟!

ـ ملح وصوف، وبقايا أسمال لا تزال صالحة.

ولأن للملح في قاموسك معنى أخر، تأوهت، تراجعت، انغرزت عيناك الصغيرتان في وجه النخاس الكث اللحية، ولمست بين حاجبيك آثار ندب على الطريقة الفولبيسية، وأيقنت أن عينيك قد زودتا بطاقة أخرى لتجسيم المرئي، طاقتهما ليست من وحي ندوب ملتقى الحاجبين كما اعتقد الفولبيس، ولكن لأن للملح انعكاسه على رؤاك.

قرابة شهر وبعيرك الموبوء يخب بدون زمام، عبر البرزخ الرملي المتعالي، وكلما التصقت عيناك آليا بشجيرات طلح، ظننتها ملاجيء بوشيمية منبوذة تغطيها الأعشاب، هل هاجر البوشيمان إلى هذا الحد، حين باغتتهم طلائع الهوتانتو؟ ربما.

هل بكيت في سرك كما يبكي أبو القاسم الآن؟ أنت تتقن مكبوت البكاء، في إشفاق تتكوم خلف محظور الإشفاق.

وسألت نفسك عن حقيقتك، فمن أنت بالضبط؟! ووضعت يدك على صلعتك، الشبيهة بلسان الثور ذي السنام الهرمي، فاستعدت مقولة والدك:

ـ "الصلعة تكتسب لإثبات الوراثة".

والصلعة ميسم استئجار عند أهالي " قنقرا "، لم يصطحبوك في إحدى رحلات اجتياز جبل الجنوب، لتعود محملا بأكياس الذهب على رأسك، لحساب مالك الثيران العجوز.

ـ لم تستمر في البكاء؟!

سألك الفاطمي دون أن يقلع عن تفحص أوراقه السرية، قلت له قبل أن تهذّب من مخارج لهجتك:

ـ ذكرى شقيقتي يا ثائر الجنوب.

ـ شقيقتك؟

ـ في الثانية عشرة من عمرها أدخلت سوق " قاوا "

فبيعت بمبلغ 6 دوكا.

ـ متى حدث هذا؟

ـ قبل القَبل حدث أيها الثائر.

وتنهد الفاطمي:

ـ السوق لغز الحياة يا أسود.

ـ ماذا؟

استمر الفاطمي دون أن ينثني:

ـ كلنا يلج الحياة من أعتاب السوق، ولكن بأحجام متفاوتة.

ـ يلجها من أعتاب السوق؟

ـ السوق ثغر الفلسفات يا أسود.

ولتتفرس فيه أكثر دنوت منه، لأول مرة تستغور تجاعيد منكسرة على سفح جبينه، رصاصي صمتك يلفّ سحنته الهزيلة، في سمرته تشممت عبق الصحراء الكبرى، وبشرة الرعاة الأوائل.

لكم كان يكبر فيك فطري انكفائك، تماما كما نظر إليك أبو القاسم كداعية مغمور، وأروى ذاتها أحبت فيك قيلك، هل صرت تَقاطع مذاهب بالغة التضاد؟!

عاودت لمس صلعتك ذات الشكل اللساني، كانت هرمولا مجدولا بأصناف الزيلع والتمائم، قبل زمن المقايضة المفتوحة وذؤابات الصوف، وصيعان الشعير المنخل، وفتات الملح.

وسيكا، ذلك الذي كان يغبطك على استطالة الهرمول إلى حد الكتفين، لكم عيّرته بآثار الجدري التي أخذت تلتهم عنقه، قاطعت ألعابه ساعتها، واستأنفتما اللعب سويا بعد أن أفلح بيطري عجوز في إنقاذه، العجوز قال لسيكا إنه من بقايا مملكة "غانا".

ميمون الثاني ردد سؤاله الخرافي في غضب محتدم هذه المرة:

ـ من تهارت إذن؟!

يغمغم، يكتسحه الدوار، يعقد الاستفهام هدنة مفتوحة قابلة للنظر.

ـ أجل من شقيقها أبي الأفلح.

وقام قبل أن يعتدل:

ـ وأبوالأفلح يواجه غليانا عاما!

ـ غليـــان؟!

وقفت " تقية " وتساءل القاضي في صمت.

ـ الشارع يطالبه بعزل وزراء القضاء، والمالية والأمن يا أماه.

ـ وتخفي ما يفرح يا ميمون؟

ـ ظن أنه استقر بعد أن أدّب مدينة العباسية الأغلبية.

قالت "تقية"، لقد صار ميمون مبعث أفراح إذن، وغادر القاضي المجلس ليعرب عن ارتياحه بشكل أوضح، غير أن ميمونا استوقفه:

ـ الأسرار المولاوية ينبغي الاحتفاظ بها.

الأمير قرر أن يزور سجن الصخرة، على دأب والده مدرار، إذا كان العام القادم خصيبا، و في سجن الصخرة تخضل ألياف اللحى الطاعنة، وتتخندق الأوصال الوهنة، وتتغضن جباه، وتنهشم جدائل طرية، وحشرج المقرئ العام.

ـ وميمون الأول يا خطيب الدعوة؟!

سأل بامبارا، فلم يجبه الفاطمي.

و"ميناس" خلف متاهات الطواف يلحظ " أروى"، يتأبط ثقل التحديق لتشحنه الذكرى الجريحة، و يفوضه الاصغاء الأصم فيلتقط أملاح الضفاف المنهوكة، يتعشق الشعاع النافذ.

ـ يشير عليك الثائر بالكف عن الإلحاف.

واجه أبو القاسم تمرد بامبارا، دون أن ينبس.

ونيابة عن الأمير زارت "تقية" سجن الصخرة، وصدر بيان مسائي بأحرف من ذهب، بتجريم بامبارا وإقامته بالجناح الخلفي، وحكم القاضي على بامبارا بسمل إحدى عينيه في حلقة عامة، فأوصاه الفاطمي بترديد الشهادة و تساءل:

ـ فيم كل هذا بينكما؟!

وردد بامبارا مقولة أروى:

ـ الآن فقط أدركت أن الصراع يعتزل الدعوة غالبا،

ليكتفي بذاتويته كسبب وكنتيجة يا عم.

وأكمل عبيد الله المهدي:

ـ أجل، فزيديو "وليلة"، وصفاريو "سجلماسة"،

وإباضيو " تهارت"، هم في الواقع

وقاطعته قرقعة بالوصيد الخارجي للمغارة، فتفقد كفنه الذي يصطحبه منذ عشرين سنة، وقال بامبارا:

ـ لقد صدّر الشرق أعراضه كاملة غير منقوصة.

والشرق معدة، بيت داء الخريطة على مدار الزمن.

ـ ومركز حركتها؟

وتنهد الفاطمي:

ـ ولى زمن رسالة القيادة، وعلينا أن نعيش زمن

رسالة الحاشية، يا بامبارا.

وشك بامبارا لأول مرة في صدق نواياه، وسأله عن قصد:

ـ وهل تحمل عودة للبَعد أيها الثائر؟!

فتغشى بجلبابه الناصع البياض، دون أن يلتفت، واستمر بامبارا في شبه هذيانه:

ـ حكيم الأدغال زعم أن البَعد لا يتكرر مرتين

عكس الحياة، فالبَعد ليس شيخا وهنا يموت

ليودع طفلا ما روحه، فيُسمى باسمه.

وسأله أبو القاسم:

ـ وهل بامبارا اسم شيخ مات؟!

ـ أجل، جد القبيلة الأم شأنه شأن "سارا".

وأصرف خطابه عن بامبارا وكأن الأمر لا يعنيه:

ـ لولا قبيلة كتامة لأعدمني الإخفاق من

أولى الخطوات يا أبا القاسم.

ـ عندها تنتعش الدعوة بضواحي " سطيف"، ويجلل

الأملُ تحرك أبي عبد الله الحجاني أيها الثائر.

ـ كتامة ستعيد الزمن، تأكد يا أبا لقاسم، ستبعث أمجاد نوميديا

القديمة بمعتقد فاطمي.

الفصل الخامس

"الشاه بندر يعود من منفاه"

الفصل الخامس:

" الشاه بندر يعود من منفاه

وضع المدّاح خيزرانه جانبا، انصرف نحو السماء في تركيز موح، ودمعت عيناه لسبب يتكتمه، وأخذ يستجدي:

ـ عشرة عشرة.

نظراته المصوبة في دقة تخترق الصفوف، لا تستثني صفوف الأطفال، تنفذ إلى جوار الشيخ الوهن الذي قبع يحترف التسمع.

تنغمس ألفاظه في ضجيج المدينة، يتفرس في شوارب "القصاب"، رجل أصلع بدين، قيل إنه مبرّز في علم التاريخ المعاكس، يمتعض دون أن يناول المدّاح الخمسين سنتيما، احتقرته نظرات المدّاح، وهو يستوحي ذاكرته المتآكلة الأشرطة، ويبرح بازقا في غير التفات، تقفوه بسمة المدّاح منفلتة ،.يجلجل.

أعاد نظره إلى الصفوف يتفحصها، التقط خيزرانه من جديد، دعا بمضخة عطر باريسي، تشربّها في نهم، تراقصت أشباح في نماء توالدي مستجد أمام عينيه، أشار إلى العازف ليصحر بالنغم في تباطؤ، يتأجل إيقاع الدف، والتفت شاب يرتدي " دجين" إلى الطالب، الماسك على محفظته الجلدية في ارتخاء.

ـ أروى فعلا من عشيقات الجاهلية.

وهز الطالب رأسه مصدقا، وعجعج لغط في نهاية الصف الخلفي، فأشاح المدّاح بخيزرانه، وعم سكون.

على أنغام النشيد القومي مزق ميمون الثاني عنوان مظروف معارض، حين فاجأه حامل البريد بقوله:

ـ أبو الأفلح يحل بالقيروان يا مولاي.

ـ تواطؤ، ضاعف مدد التخوم يا قائد الجيوش الأربعة.

والتفت إلى حامل البريد:

ـ هل من معلومات أخرى؟

ـ أبرق سفيرنا بحرارة الاستقبال يا مولاي الأمير.

ـ وماذا أيضا؟

ـ راشد الزيدي فاوض أبا الأفلح باسم وصاية الأدارسة
في شأن ابن الداخل، فأنشدته البوارج الراسيات
بمنعطف نهر الزنج الأسفل.

وقال أمير الأخبار الذي حضر منذ حين لاهثا:

ـ أعلن إبراهيم بن الأغلب حكومة في القيروان يا مولاي.

ـ تعثّروا في الاعتراف به إلى أن يلغيِ اِتفاقية " ابن حاتم " مع تهارت.

ـ وتتأهب قاعدة احتياطية من موالي بغداد للتدخل.

وأضاف أمير الأخبار مستنتجا:

ـ انفصال الأغالبة جاء نتيجة مسعى تهارتي يا مولاي.

وأكد مخبر عسكري:

ـ أجل لقد أعقب زيارة أبي الأفلح مباشرة.

وزمجر الأمير حانقا:

ـ لا تضيفوا إلى أبي الأفلح شرفا آخر.

وفي صدق تساءل القاضي:

ـ شرف؟!

ـ نعم، استقلال القيروان عن بغداد شرف.

ـ فليحذروا بطش الرشيد إذن.

ونبر قائد الأركان:

ـ الرشيد ليس بموسى الهادي على أي حال.

ـ لذلك أبقينا على نمط من الولاء نحو بغداد يا سيدي.

وقال الأمير وكأنه يتحفز للخروج دون أن يقوم:

ـ لا تبعثروا استفهامكم بل اِسألوا فقط عمن سيسود.

وأضـــأف:

ـ الوفاق دائما يحمل مرادف الاحتواء، فمن؟!

وسعل دون أن يكمل، فدنت منه " تقية" وهي تقول:

ـ فلنحذر أبا الأفلح فقط، فمن مأمنه يُؤتى الحذر.

وأضافت كما لو تذكرت شيئا:

ـ وما مآل التمرد العام بتهارت يا مولاي؟!

ـ لما يخبُ بعد، لما يخبُ بعد.

وقالت " تقية:

ـ ألم يدّع أبو الأفلح أن انتخابه كان محل إجماع تهارتي؟!

فقال ميمون والسعال يقاطعه:

ـ وهو ما حـدث:

وتدخل القاضي مشايعا:

ـ علمنا أن مسعودا الأندلسي قد أُجبر على الاختفاء أيام البيعة يا مولاي، ولم يرفضها تلقائيا كما يُشاع.

وإليه التفت ميمون الثاني بقوة:

ـ مـــاذا؟!

ـ هو ما سمعنا يا مولاي.

في جناحك الخلفي تجهلين أمر الجدل العنيف، تغوصين في حدقات مثقلة بالتهجد، تنبشين الظلال المعوجة، وتقتفين مقاس الإطراق، فتُغبّر مروج الجدران الكاتمة للشدو والعناد، تشهدين تحية العلَم كل صباح، وحداةَ القوافل المنهوكة بالتمر والذهب، وطوابير الرقيق المساق إلى سوق المدينة المشرّعة الأنهج، وتلسعك صيحات التجار المتناوبة عبر الأزقة، وصمت الخطاطين خلف أسوار النهايات المتقاطعة، ونُسّاخ الشعر الشعبي الموقع باسم مستعار دائما.

كانت من ضمن نساء سجلماسيات، شقراء، سافرة، فارعة، قيل إنها هدية أندلسية، وخلفهن عجوز ترتدي السواد حدادا على أحد ما، وكنت تلوكين الأمل الضائع، وتذكرين نصائحك التي رفضها ميمون الأول جملة، تدركين حدة استبداده، وتجهلين نهاية الاستبداد كأية سيدة تنظر من فوق، صارحته أن يعتمد مجلسا للشورى، فناهضك بقوله:

ـ الدعوة لا تستشير.

وحين أقال أباه مدرار، أعلنت فرارك من مشروعه، فقال لك وهو يغادر صهوة جواده:

ـ الدعوة ترفض الوصاية على العرش.

ـ وهل اتخذ أبوك وصاية؟!

ـ لقد اعتزل هموم سجلماسة للتفكير في

مصب النيجر والفولتا يا أماه.

ـ شأن كل أمير قادر يا أحمق.

ـ لا توجد القدرة إلا بجانب الضعف يا أماه.

من يجادل ميمون الأول؟ كان يحسن فن الإجابة دائما، على شاكلتك، لذلك أسميته "النظـأم المعتزلـي"، حين جفت دموعك، طلبت إلى أبي القاسم وساطة لدى الفاطمي بشأن أخبار ميمون الأول، فأجاب جاريتك في تذمر:

ـ والدي يرفض الإدلاء خارج الشأن الإسماعيلي.

يمارس بامبارا حق غيره في الاستجداء، والمشترع الرسمي يهمّش الكبيرة هذه المرة، والحارس الليلي يتغزل بفتاة الحديقة المجاورة في سر، يتقاسمان تفاحة غير مشبوهة، مستوفاة الجمركة، يتهامسان حول تنازع الأجرام، وبقايا الغدير في صحن الرافد المهجور.

من وراء الستار تبكيك زائرتك المقنعة، قبل أن تستقل قافلة الصليب القومي إلى " ميناس" وقد تمكنت من إخفاء برقيتك في دهاء شيخوخي، داخل ثوبها الفاتح:

ـ أبلغي أبا الأفلح خطابي يا خالة.

وقبل أن تقلع أهدتك قميص الحبشي خلسة، ضارعة تطلبين إليها حكايات الوادي، وشرائط تاجر الهند المولع بالمركاز "النقانق" والبدنجان، وأوتار الرباب الذي اصطحبه الضباب على وجنتي الأفق المغشي.

تتخيلين سلاسل صدئة تقرقع في دملجك الوضاء، فيعاودك القعود، هناك بلغك أمر الأمير الصباحي:

((عزوا قوات الداخل في ضحايا مناورتها الخامسة بعد المائة))

وفي اعترافاته المذاعة بواسطة محطات النساخين، نفي عبيد الله المهدي وجود ميمون المختطف بالأراضي الملحقة بقبيلة كتامة، وأدان الخطف، وشكك في وثيقة العفو العام.

بامبارا يغربنه السحر في تعاتيم الهجير الشتائي، تُفحص بصماته إذا همّ بالعزف منفردا، تضيق مقلتاه إلى أبعد حد مستطاع، فيصير أعشى بعينه غير المسمولة، منذ أيام السمل اعتزل الفلسفة و تعاطى التفكير الحيادي في النظر، و ملابسات الظلال.

ـ من اختطف ميمون الأول؟!

يتأوه بامبارا.

ـ عن الإلحاف كف أيها الأسود.

خاطبه الفاطمي هذه المرة بدون ترجمة، والقاضي يستجمع جزئيات الخلوة، يتوق إلى عين تهجل عمدا عبر الفراغ، يطاعن أعتاب الجناح بنصف عينه الفاقدة للنظر، يقاسم الليل شروده، ويمتطيه الشبق، يضع مصطلحات لنوتات التدريج:

ـ تصريح الفاطمي يعمم الاتهام يا " تقية"؟!

قال القاضي فور دخوله جناح الأميرة الأم.

ـ وأنت توزع البراءة.

تضاحكت " تقية " في تصاب معهود.

وأنت تنبذين أطنان الأغلال المولعة بركوب البغال، ونائب الحي يمتهن الثناء، وقوافل البريد تعتزل الجزيرة. وهمست فتاة الحديقة:

ـ هل تحبني يا عريف الحرس؟!

ـ أنوي الثوران أحيانا يا فتاتي.

واقتطف زهرة ناولها إياها في صمت شفاف، واستمر الليل يدغدغ تأرجحات أنفاسه، وتصلبه أوجاع الرتابة، فيصحو ليلهو بنبات التفويد الذي تزدان بحشائشه، أبواب المدائن الكاتمة للمخاض.

ـ وولدها يا قائد الجنوب؟

وأضاف بامبارا:

ـ من يتعشق أوجاعها يا قائد الجنوب؟

أعتدل الفاطمي في جلسته، ورمق بامبارا بنظراته المتفاوتة الحدة وقال:

ـ ميمون ينام بين الدعوتين، يفترش أسجاع الرواة،

يلملم أهازيج " الأزدي" في أباطيح الأسواق المهمشة.

وشجعه كلامه على السؤال فدنا منه:

ـ فيم أُسرتَ يا قائد الجنوب؟!

في زورق الرؤى القسطلانية يشاجر الموج مجدافه، حيث للركظ نحو الخلف مذاقه، وللسكون ألوية تترقب الحفيف الفاتر.

ـ أُسرتُ في الجوسسة لفائدة بَعد ثالث، ولا شأن لي

ببَعدك ولا ببعد جابر أيها الأسود.

سحنته المتقاعدة تحتضنها عيناك الغائمتان وتتساقط على أنظارك السادرة يانعات رموشه في غير إجفال، لثاني مرة تقتحم وقاره لتبكي فيسندك أبو القاسم:

ـ ترقب إرهاص التبني يا أسود.

ـ تبني ماذا أيها القائد؟

ـ تبني الاختطاف، لسوف يُنسب إلى جهة غيري هذه المرة.

ـ يُنسب؟! هل؟!

وتدثّر المهدي في صمته الثقيل الذي يخافه بامبارا، وانتفض لينقش على جدار السجن صورا راكضة، وعناوين محجوزة بضاحية " القدس" أثناء تغريبته.

ويؤوب ميمون الثاني من سفرة صيده، فيواجه "تقية" بالسؤال:

ـ ميمون مهما كان الأمر أخي يا أماه؟!

ـ أخوك؟ أخوك وطليعة الباحثين في كفك،

ومداعبي التوازي في سرمديات التأرجح المحبب،

أخوك وسدادة الثغر المحاذي النافث

للترقب.

ـ ولكنه رفض ما تسمونه بوصايا أخواله بنفس المنطق؟!

ـ مراهق أنت يا ميمون الثاني، تصفدك هوامش

البسمات، وتسيج حناياك ومضات الحنو الصدئ،

احفظ عن القاضي، والمؤرخ الأعمى قبل إقالة

روايته من قبل خليفتك المرتقب، وكاهن الرمال

الناطقة خلف الذبائح السود.

ـ إنه أخي.

ـ لكأني بك تكاد تجهش، وابن الضرة ضرة،

وللضرة جنسيتها يا ميمون الثاني.

ـ خالتي أروى ناهضت فيه مطلقيته قبلنا جميعا؟!

ـ بعد أن صيّرته مطلقيا يا ميمون الثاني.

دنا منها لتحتضنه كأيام المهد الأولى، وآماسي الصراخ القائل بالتزحزح، وغمغم.

ـ أنت فتيلة ارتياب يا أماه.

ـ أنا من أجل عهد بك سيطول.

يمخر "تقية" عياء حين يخترقها بصر ميمون الثاني، ويسترقها الندى ليمحو أهاضيب التخمين المتكومة خلف الحلق، والرنات العصفورية الحاملة للزمجرة تُفض أوتارها، ويقلع الرمش عن طلل الافتراس، في سره يرتل الأمير معزوفة متوثبة، فيغادر القاضي مجلسه باستئذان، وتشرد خواطر الأمير من

جديد، تلاحق تخوما يلفّها الغموض.

جانية " تقية"، قرأ أطفال الحي الهامشي مقلتيها في الصباح الباكر، واعتصر الحارس مخاض الإدلاء، وأشار عليها قائد الحامية بالنوم، إذا ما اختلت في غرفة منامها، وانصرف المؤرخ الأعمى صوب الصخرة، ليهمّش الدعاوى التي مات أصحابها قبل صدور حكم ما.

ـ تبنى راشد الزيدي عملية اختطاف ميمون الأول.

وقهقه ثائر الجنوب طالبا إلى أبي القاسم أن يستأنف الإنشاد منبطحا هذه المرة، بمعزل عن الرباب العائم، وسألته نظرات بامبارا في التهام، فربّت على كتفيه لكيلا يجهش.

ـ ليصير وصيا على عرشي الأدارسة و سجلماسة معا.

أضاف منادي الأسواق، وبامبارا يقتضم الفتات ويبادل فأر المغارة تحية الصباح، ورددت صوت المنادي محطات النسخ وعربات البريد، ومؤذن الأسواق الشعبية، وخطب الجمعة، وسقّاء الدرب المحظور.

أروى تناولين الشاهد أخر الأسورة، والمحامي فضلة العقد اللؤلؤي، وتتسمعين أصداء الحرب بين القبيلتين، ويغربنك البيان الختامي، فتبزقين بعد سماعه، الأسماء الرصاصية تطلب المبارزة، وهوادج العذارى مجهزة بأحدث وسائل الإصغاء، ترنو إلى طاقم التحكيم الأممي.

كم ميمونا تبكين في ساعات حظر النحيب، و تمشيط الدمع بالأظافر في مختبرات السوائل المتوبلة ؟ وفي حلقتك المسائية دائما تحدثينهن على شدو "الحميري"، ومواسم "النهروان"، واصطدام "صفين" الرهيب، وافتضاض كتاب مروان الثامن عشر، قبل الإعلان عن التحرك الليلي.

وقاسمتك جاريتك بعض كسائك، لتقص عليك واقعة انقشاع الحماية عند "ايرينا" ملكة بزنطا، وليلة ولج عبيد الله المهدي المدينة الحصين، فوشى به مخبر احتياطي الولاء، وأثناء زيارة السجن عارضك في لا ميات العرب و العجم و اليهود.

ـ هل تحفظين "لسحيم" يا جارية؟

سأل جاريتك أبو القاسم، وشدها بامبارا بسهومه، والشمس ترفض أن تطأ زاوية مجلسه.

وتفطن إلى دفء نظراتها فأرتجل أشعارا "لسحيم" في مولاته العاقر حين طعنته سيوف القبيلة الأم بإجماع، لتسمع لهاثه في وقار.

سحيم كان ابن جلدة بامبارا، لذلك حُظرت عليه خرائط الأجسام الطرية، سيدته أحبت فيه أشعارا لا تستحق الذكر بمجلس الفاطمي، هجرت مضجعها في سبيل الحلم بأشعاره المحببة إلى نفسها،

سحيم اعترف من داخل حلقة السيوف، أنه بادل نساء القبيلة الحب في معناه الليلي البحت، إلا واحدة يربطه بها موعد حلم، الواحدة أطالت التمنع اعتصاما بجمالها الفائق، غير أن أحاديث بنات الحي عن أشعاره المحظورة، أشعلت فتيل الرغبة في وجدانها.

وحدها التي بكته أثناء تنفيذ الإعدام الجماعي، ورغبت في معاينته قبل الدفن، ولعنت ترددها و استنّت زيارة شاطئ البئر كل سنة، للترحم على قبره المجهول، وقالت جاريتك لأبي القاسم:

ـ ألم تخلف فيه أشعارا؟!

ـ بلى نسب إليها الرواة أبياتا، والرواة ينسبون.

استعادت أروى نفسا متقطعا، وتبطنت أمسا ضاربا في الدكنة، وبعيد الفتق بقليل، اختلس القلب خفقانا غير مرخص به.

وحيّت الصخرة حامل الكتاب المشبع باللهفة، وقاطع وفد "الداخل" المأدبة.

وفي أزقة القيروان بكت قابلتك قطيعتك، فأتهمت بالمروق عن المذهب الحنفي، والقول بأباحية النبيذ، وتوقعت المربية إنجابا، وأقفل نخاس بغداد قائمة السبي، وتلكأت هدية "المقنع" الخراساني، أروى بلغة أخرى تحادثين الفائت، والظل ينصرف خلف جدران الجناح المنقوش الأرداف.

ـ لا مناص من تلغيم وصية "ابن حاتم"،

وصية مدرار ساعة الاحتضار المشبوه يا "تقية"".

أزبد القاضي وهز الأمير المستخلف رأسه دون تعليق، وقبل الانصراف الثامن، تسائلين عريف الحرس عن أحوال الطقس خارج الجناح، وعن تأرجحات الحرارة على المضيقين، ولوافح الدرب الغربي المستشرق، فيكتمك نصف الخبر ويشاطر فتاته فاكهة التفاح، ويلجّان في ضحك مسعور.

أنت تجهلين اختفاء ميمون بن تقي بدوره من طرف المصلى، وجلبة العساكر في جناح الحريم الأبيض، وزئبقية الوجهاء الأضداد، وسُرى القبائل خلف شعرائها ليلا، وإقالة خليفته "محمد بن ميمون" في الصباح الموالي، وإحراق صوره، وملاحقة أصداء صوته في آذان الأسواق المستنفرة للثأر.

بامبارا يهامسك الفاطمي في شأن الخليفة الجديد "ابن المنتصر "والخطبة الأولى، والأحكام المؤجلة، ووباء التملك، وقسم كتامة على جفنة الثأر أيام مفاوضات الحجاني.

ـ هل قرأت مذكراته أيها الثائر؟

سأله بامبارا.

ـ سيكتبها من جديد، من داخل العرش،

فالكتابة من خارج العرش انتحار.

ـ قد يعدمك أيها الثائر؟

قفز بامبارا فسأل، وتلمظ عبيد الله المهدي في وقاره:

ـ وقد يقع العكس أيها الأسود.

وتنهد أبو القاسم، وغمغم بامبارا في استلقائه غير المحتشم، وحين تطلعت أنت إلى جناح الثريات المجلوبة، طعنتك قهقهات "تقية"، وطرقك سعال القاضي خلف النافذة، وجرعات قائد الحامية، وكوكبة من الفرسان تؤدي تقديم السلاح للدهقان عند انصرافه.

وزارتك أرملة "ميمون الثاني" بعد اغتياله في ضيافة مؤقتة، فحدثتك عن اختفاء مدرار قبل تصريح عبيد الله المهدي، ومقتل ميمون الثاني لأنه طالب بسماعك، ووفاة محمد بن ميمون حين استفسر إدريس الثاني عن خبر الاختطاف، وناولتك الزائرة كتابا من سكرتيرتك الأرمنية "نداء القلوب" فأفرحك لقاؤه، وأخذت تستعجلين الصباح لاستهلاكه.

بين نهديك المترعتين بمحول الرضاع ينام الكتاب، كمراهقة تتشمّمينه في لهفة، من براكين الزمن الراكد تلفينه ببسمة ملتهبة، نارية بسماتك يا أروى، تماما كقلبك و لو قال بالرتابة أحيانا، في العتمة يراودك التهام الكتاب، تتضورين إلى النور، كان ملفوفا بخصلة من شعر "نداء القلوب" الفاتنة، كانت إذن تحبك بحق، يدك الناعمة تسبح بين سطور الكتاب على طريقة "المكفوفين"، ويتمنع، على خشخشته تنامين، تصلّين الفجر، تنتظرين الشمس لتزف إليك قوة نورها بشرى الإشراق، في عجل تستنطقين الكتاب، تفكين خصلة "نداء القلوب"، يفضي إليك بأسراره:

((من أبي سعيد الأفلح أمير تهارت إلى عمتي أروى أما بعد))

((.....))

من يقرأ المتبقي وقد قاطعك الشهيق؟! واحتمل السيل الدافق خلف الجناح تلافيف المظروف، و تصلب النطق، و ارتمت عيناك على أحراش الصخرة من بعيد، تناقشينها في احتضار أولي، وأيقظك حفيف " ميناس" فانتجعت تتأوبين أبا سعيد الأفلح، والرافد السفلي، وألعاب المناظرات المفتوحة في الرأي على مبرز المعتزلة، واستعانة أبي الأفلح بمهدى نفوسة، واهتزاز الواصلية لرهبة الإفحام، و نزوح الحبشي إلى ما وراء الأحراش الباهتة النسيج، و زمجرة أبيك الوافد في رثاء "أبي الأعلى".

وشكاوى" الطرماح " في قتيل القبائل العاشقة للخلع، في "عمران"، ودندنة "ابن أبي السمح" غير المدونـة. وقلت لنفسك:

ـ مات أبو الأفلح وأخشى أن يعود

الشاه بندر من منفاه الوراثي.

وتقدم بامبارا من عبيد الله المهدي، وكأنه يقاسمك خواطرك من بعيد:

ـ سيدي، هل الشاه بندر هو خاتمة كل عهد ذهبي؟

ـ إذا افتقد العهد رافضيته يا أسود، والشاه بندر

يرفض بدوره ولكنه المحل الأول للرفض.

وأضاف عبيد الله، وهو يستلقي على دكة من قش في زاويته المظلمة:

ـ مهمته أن يلاحق يا أسود.

وأفرغ بامبارا مخزونه حول تضاد النور والظلمة، فقال الفاطمي:

ـ إقرأ لجعفر الصادق.

وألمح بامبارا أن الفاطمي لا يشاطره البكاء فشكّ في اعتقاده خفية، وتوقع تنكيس العلم قبل أن يقرأ رقعة طبية تصنف الانتخاب ضمن سرطان العين، وأرجأ الفاطمي الإنشاد لأسباب وقائية.

وسألتك نفسك عن ارتجاعات البكاء، وأحياء قصب الحنظل، وعن صحة المؤرخ الأعمى الذي ألغى دكتوراه وعاود الدراسة من جديد، من داخل العرش حين ألحق بالبلاط، ولقاءات بقايا العائدين لبحث تجانس اللاميات وأصل اللغة، وعن التقرير الطبي في موت كاتب السيرة، واجتذبت قرنفلة نفسا طويلا من عطرها وزمّت شفتيها في ضيق على مرأى منك.

وحين تشجع للسؤال عن ولدك، انتهره الفاطمي في عنف هذه المرة، فاعتزل مجلسه، ليلعن القطيعة بين المذهبين، فسرب الفاطمي صوره إلى ألويته الخلفية "بضواحي سطيف"، التي تمتهن انتظار الإشارة بالبدء.

وازدانت حلقات جناحك الخلفي بلحاق أرملة الأمير، التي حدثتك بصدق لأول مرة عن عشيقها المغتال، و رحلات اليخت عبر "طبرية" قبل فيضان الدماء، و نضوب الينابيع العليا للنيل.

بامبارا كان قد أخبرك أنه سياتي حين على الأنهار لتجف سويا، النيل، الفولتا، ضفاف السنغال، و مصاب النيجر، و أبو رقراق، و ميناس، فقلت له ساعتها:

ـ أ حياة بدون ماء؟!

ـ تماما كالماء بلا حياة.

قلت له:

ـ أكمل أكمل.

ـ وسيفيض الفرات في اتجاه الخلف.

والفولغا سيعلوه الطحلب والنكوص.

وفي الصباح عادت أرملة ميمون الثاني إلى جناحها، فأنكرها الحارس و طلب إليها أن تنتسب ففعلت، ليقفل الشباك و يقرأ بريد غارات الصباح.

ـ الفاطمي يا مولاي.

ـ ما بـه؟!

ـ فر من السجن

وانصرفت محظية الوزير دون استئذان منه، فلاحقها بصره إلى أن اختفت خلف كؤوس العصير، وتحسس آثار قبلاتها على عارضيه الأشيبين فأنقشع الخضاب، ولمح قائد الحامية يهرع في طلب بزته العسكرية، والناطق الرسمي ينشد جلسة غير طازجة، وخارج البهو تلقى الأمير التعازي في غير انتظام، واختلى "بتقية" فتطفل القاضي، ومن سجن الصخرة جاء المخبر بآخر الآثار فانتظر الغارة، وأقلع الموكب الأميري تلقاء المنجّم.

ـ أين وجهته يا كبير المنجمين؟!

ـ قد يجتاز شيئا كأنه البحر يا مولاي.

ـ البحر الجسر إذن؟!

ـ أجل إلى تهارت.

ولاحظ أمير الأخبار:

ـ سيحتج السفير القيرواني؟!

ـ وإن نزل قرطبة؟!

ـ يُرفض بمقتضى لقاء " سرقسطة" يا مولاي.

ـ القيروان إذن؟!

ـ والقائم بالأعمال البغدادي يا مولاي؟!

وقال المنجّم غير واثق:

ـ لكأني به سينزل الفسطاط.

وتضاحك القاضي:

ـ يُقال ولي مصر ياسيدي.

وفي مجلسه الخلفي تحرك الدهقان:

ـ سيطلب حق اللجوء إلى القسطنطينية.

وقال المخبر:

ـ على غرار "المقنّع الخرساني" وشيخ العرب؟ ربما.

وقدمت "تقية" عريضة نقض موقعة، فمسكها "ابن المنتصر" وهز رأسه قائلا:

ـ أجل صلتك "بايرينا" ينبغي أن تُستغل الآن.

وفي تركيز ردّد القاضي:

ـ أيرينا. أجل هي يا أمير المضيقين وشلالات الدغل الأقصى.

وعلى عجل أدى قائد الحامية تحيته.

ـ بثياب متنكرة غادر عبيد الله المهدي سجلماسة يا مولاي.

ـ والمطاردات البزنطية؟!

ـ في حروب الرشيد كما تعلمون.

وعلى متن القافلة العائدة إلى جنوب النهر، أذن الحبشي لنفسه بالإنشاد منصرفا كلية إلى التفكير في أروى، وترأس "ابن المنتصر" مجلسا حربيا لبحث إطعام المعتقلين، وأرجأ الحديث إلى خطبته الصباحية، وأفرج عن أرملة أسيرة دون استشارة القاضي.

وقابلتك سكرتيرتك الأرمينية "نداء القلوب" لتستفتيك في الحب من أول نظرة، وفي زيارة له أهدت بامبارا صورتها عارية في حالة رقص قصوى، على أيام ما وراء النهر، فواعدها بالكتابة عن الحب في سن اليأس، وعن مرادفات الجوع عند الأطفال القصّر في أدغال أفريقيا، وعن مواويل الحكيم الزنجي بمصب النهر الخريفي الفيضان، وعن أنواع الحبو في مغامرات الترويض المبتدع.

ـ وماذا أكتب للأمير أفلح يا مولاتي؟

ـ أكتبي نصيحتي.

لمَ تذكرين ميمونا الأول بالذات؟ ألأنه واجهك بتفاهة النصيحة ذات يوم؟ قال لك بنبرات عالية:

ـ النصيحة شأن الاستشارة لا تقول بها سمات الكاريزما يا أماه.

ـ أكتبي أكتبي يا نـداء.

ـ ماذا أكتـب؟

ـ أكتبي: "اِحذَر من بايعك قبل غيره، والتمس رؤى العلاّمة الجناوني في خطاك،"
ولا تهب ابن وردة تسامحك المسبق".

في سمك المنحنى الليلي، أنظارك تحدث شرخا نازفا، فيتشرب أصواتا غير مولدة، تتصلب، تسلك أحرفا مغمسة في دوايات السحرة الهواة، وفي يقظة يربكك الشخير، يدعوك تأوه مألوف في الفراغ، ويناغيك بامبارا من خلال زيارة جاريتك له:

ـ سيدتي إني أحبّ الأمير أفلح.

وتفتر عن شفتيها بسمة غير نارية:

ـ ألأنه أوفد ابن عرفة إلى " كوكو" ملك السودان؟

ـ وحمّله هدية ثمينة.

وانثنت أروى عن ضحكتها:

ـ أّه لقد أنسيتني، أكتبي سلامي إلى عالمة الفلك "مهاة" ابنة عبد الوهاب.

دعا ابن المنتصر "بتقية" ليسألها:

ـ ماذا عن فرار الفاطمي يا جدة؟

ـ راسلت "إيرينا" في شأنه، فاشترطت فك الحصار العباسي على السند، وما فوق النهرين.

ـ وما تفسير موقف كهذا؟ إذ نتخذه؟

ـ تعتقد أن ولاءنا لبغداد يمكّننا.

وقاطعها في قوة لهجة غير معهودة في حديثه معها:

ـ يمكّننا من التواطؤ مع بزنطة؟!!

حاول ابن المنتصر أن يستقرئ نظرات "تقية"، شيء ما كان يقبع خلف الإجفال، شيء يموضعه القاضي في سرّه، يتهجد به الدهقان الأعظم قبل انفتاله عن النصيحة، رغبة الأمراء تناهت إلى مشاهدة أروى، وأروى لغز في معدة سجلماسة، أخفى ابن المنتصر رغبته لكيلا يُتهم، فالبحث عن الأمس ردة في يوميات قائد الحاميات الموغلة في الجنوب،

ـ من يواجه "إلياس" في غياب قائد الحامية؟

لولا السؤال، لركب السيف أعناقا وأعناقا، ولكن للسيف ارتدادياته المخيفة.

ولج حامل البريد الأقصى بوابة المقصورة شبه السرية، وانحنى في باقي كرامة وقال:

ـ هشام بن عبد الرحمن الداخل يحتضر يا مولاي.

ـ اِجلس، حدّثني عن أوجاع الحكم الأندلسي.

فتح حامل البريد مذكرته في حذر وقرأ:

ـ ((إختلس "الحَكم" ولي العهد تنهدا ضافيا، وهو يدنو من فراش أبيه، بالوقوف أشار عليه "هشام" المحتضر، ولتلقى النذر انتصب حاسرا رأســه))

ـ وبماذا أوصاه قبل وفاتـه؟

ـ ((أركب في طلب القمم المختلطة، وابقِ على النفير، انزع سلاح ثغور المغيب
حيث "الفونس"، واقطع خطوط الرجعة بالمضيق السفلي، أين تتجانس المذاهب
للثأر القديم، توقّع الغارة من مصب الإشراق عكس مغربه)).

ـ وإلى هنا يا مولاي سأل الحكم أباه: ورسالة الرشيد يا أبتاه؟

ـ حلها على مجلس الأعيان، وذِعْ في الناس أنك مزّقتها في لحظة سكر،
لا تنس أن الرشيد سمّ إدريس الأول برسالة مثلها يا أحمق.

وأظهر "ابن المنتصر" عدم اقتناعه، فاكفهرّ وجه قيّم البريد، وانتظر احتجاجا:

ـ ما يعنيني هو فقط وصاته الأخيرة.

ثم قال لابنه: ((ابن لي نصبا برونزيا بساحة المدينة،
واسقه في كل صباح بماء الورد)). وحشرج مردّدا
وهو يلفظ أنفاسه، وتقدم منه الأمير بسمعه:

ـ مرددا مـاذا؟!

((راشد والرشيد، وابن المنتصر وأبو سعيد،
راشد والرشيد، وابن المنتصر وأبو سعيد)).
إلى أن مـات يا مولاي.

وكتب المؤرخ الأعمى أن "هشام" مات في خلافة ابنه "الحكم"، كما كاد مدرار أن يموت في خلافة ابنه "ميمون الأول"، وليلا تفقد "راشد" وحدات الخيالة نيابة عن إدريس الثاني، وامتنع "الرشيد" عن الإبراق بالتعزية أيام فتنة بنيه، وأقلع في زورق مأجور ينشد برمكيا، قيل إنه يتجسس لفائدة "موسى الهادي" الذي مات بدوره في دار الحريم.

وأنت بزاوية الجناح تتمددين، يمخرك الصداع المُركّب، تتدثّرين بخمائل شعرك الهندي، ويحجبك الظلام، وقشعريرة وافدة تراود أطرافك.

ـ من تكـون؟!

سألت فتاة الحديقة عشيقها الثاني، وقذفت بفاكهة تين غير ناضجة.

ـ خبرها من سر الإمارة يا فتاتي.

ـ وأين الفيلسوف الأسود؟

ـ قضية خاصة لا علاقة لها بالحب.

حين قطبت الفتاة، انتهرها عريف الحرس بقوله:

ـ لعلك تحلمين بملامح عريف الحرس السابق؟!

ـ أعدم فور فرار "الفاطمي" كما تعلم

وقهقــه:

ـ فرار الفاطمي! اِقتربي يا صغيرتي.

ـ بلــى!

واستعاد غلظة صوتـه:

ـ فليعدم العريف السابق في خيالك، وهو كل ما يهمني.

وتدنت منه في خيلاء نصف محتشمة:

ـ قبّلنـي لأ فعـل.

انتفض العريـف:

ـ أقترف الكبيرة إذن؟!

في تودّد مفتعـل:

ـ وما الكبيرة يا عريف الحرس الليلي؟

وخلف سياج النافذة المرصّعة تطلعت إليهما أروى وقالت:

ـ الكبيرة توأم السؤال، والسؤال تحليق مجوف،

والتحليق استكشاف باطني أحيانا، الاستكشاف

نهايـة دائما يا "قرنفلة".

وقالت قرنفلــة:

ـ سيدتي تعرفين اسمي؟! لكم تبدين

بسيطة رغم تلغّزك.

وقال العريـف:

ـ قرنفلة؟ جمالك يحملني نحو الكبيرة.

وردت أروى:

ـ الجمال الطبيعي نقيض الحياد يا عريف الحرس.

هي حكمة بامبارا التي غالبا ما رددتها أروى بحضور كلي، وغادر مأمور القلعة موقعه إيذانا بافتتاح الألعاب الموسمية، وقاسمت فتاة الحديقة أروى تفاحة فاعتذرت:

ـ إننـي صائمـة يا فتاتـي.

الفصل السادس

"قبل التشكّل كان البُعد ثم الزمن"

الفصل السادس:

قبل التشكّل كان البَعد ثم الزمن:

قمع المدّاح بإشارة من خيزرانه وشوشة أطفال بزاوية الحلقة، قبل أن يومئ إلى "القصاب" بالتوقف، واستدار إلى الخلف حيث يقبع العجوز، فتراءى له الرجل الأصلع، وقد انتصب في صمت كتمثال حديدي.

ـ عشـرة عشـرة.

وفي تذمر نبر العجوز:

ـ هو ابتزاز إذن؟!

ـ بل هو الأمس يا أبتاه.

تدنى المدّاح من العجوز مداعبا، وتمتم الأصلع في حنق، وقالت سيدة غير مقنّعة:

ـ حدّثنا عن سوق ابن وردة.

ـ حظر الأفلح على الشرطة دخول هذه السوق.

وقهقه الشاب صاحب المحفظة:

ـ لعله كان ذا أسهم فيها.

وتفطن المدّاح إلى أنه أخذ يمنح الأسماع أخابير بدون مقابل، فاستعاد جدّيته ومد يده في عنـاد:

ـ عشرة عشرة، وإلا أجهضتُ أحاديثي بدون اختتام.

وتصايح أطفال الزاوية انتقاما:

ـ أجهضها أجهضها.

ونبر العجوز وهو يبحث جيب صداره البني اللون:

ـ انتظـر انتظـر

وناوله قطعة ما تأملها المدّاح. وصاح بكل قواه الصوتية:

ـ عشرة دنانير دفعة واحدة؟!

وخطا خطوة إلى الأمام، والتفت في حركة معتادة:

ـ نيابة عن عشرين بخيلا منكم يا أشباه الرجال.

واهتز الجمع بضحكات متفاوتة الوقع، وحك الأصلع رأسه، فعلق المدّاح في زهو:

ـ لن تصير من مستأجري الذهب، ولن يقول بامبارا بهذا.

وبخيزرانه المنحنية الرأس، رسم المدّاح حركة يُفهم منها أن "القصاب" قد تسلّم إشارة البدء، و انتظر المدّاح ثناء ما على اكتفائه بالعشرة دنانير، فأخذ يشبع عينيه من سحنة العجوز، بل حاول تقبيل شاربه الأشيب الطويل، لولا أنه أخفق.

منفردا أعلن النغم عن حضوره، كان "القصاب" يتبطّن موّالا مبعدا، اضطر أمامه الدف إلى التأخر إمعانا في تجميع خواطر الجمع، بينما انشغل المدّاح بإصلاح عمامته، التي بدت للأطفال خوذة قماشية، قال المدّاح حين تسمّع ايقاعات الدف متتالية:

ـ الطبل خاصّةٌ إفريقية يا أطفال.

تزوّى بامبارا في مكانه كما لو أنه أدغم أطرافه الفارعة، وأخذت عيناه تسرحان عبر زوايا معتقله الجديد، كانت إحدى عينيه مسمولة لا تقوى على النظر، وحامت حول عينه الأخرى سحب بيضاء.

ـ هل غادر سجلماسة؟ أيوجد بإحدى ضواحيها؟

بخلده لم يدر يوما أنه سيفارق أروى، تماما كما أُجبر على فراق الفاطمي، كان وقار عبيد الله المهدي يقارب تجلّة حكيم الأدغال، إنه هو الآخر يملك سرّا ما، يبدو أنه يجبره دائما على أن يتجاوز موقع النصيحة إلى الفعل، والنصيحة في نظر الفاطمي، لا تعدو كونها زادا يوصلنا إلى حيث نجبر الآخرين على الأخذ به، وإلا ظلت نصيحة وحسب.

إنه عكس مالك الأسرار الإفريقي، الذي نشأ بامبارا قريبا من كوخه الشجري إذن، كان الكوخ مصنوعا من لحاء أشجار ذاوية، تغطيه الحشائش بشكله الاسطواني، إنه يمثل حظيرة أرواح لتلقين رياضة وثنية، متعددة القناعة.

فضمن حلقة صبيانية صغيرة، تم ختان بامبارا، وتلقى جسمه الصغير جراحات شبه عميقة،

وتلقى أناشيد ورقصا دينيا، وتشرّب ماء معكرا بالوحل، وحرّك شيخ "الكومو" رغبته الجنسية مبكرا، حين قال لـه:

ـ خارج "الكومو" توجد جماعات تنهي أطوار تعليمها بإباحية جنسية، ولكننا في البامبارا لا نسمح للنساء بالتعبد.

وكاد بامبارا أن يصير مريدا حذقا، لولا أن الملح اغتال طموحه، كان حكيم الأدغال يتناول تعاليم الآلهة الأفريقية في إجماع فريد، في قداسة تضني الأتباع، كان يردد في ثبات دائم:

ـ إما أن تعلم كل شيء، أو لا تعلم شيئا على الإطلاق.

في لحظة وداع قال لبامبارا، وقد أمسك بقبضة من تراب وحصى:

ـ مما تعلمت خذ لنفسك نسقا، خذ من جمعيتنا "فارو"، ومن ثنائية "ليزاماوي" الفونية، أعد النظر في بعض تعاويذ إله الهاوتانتو "تسي غواب"، واحتفظ بآثار حامي الصيادين "هيتسي إيبيب"، وراجع ما ترك سدنة إله الرولو "انكيلي" "انكيلي".

ومن أتربة حجر الحية "دا"، ومن "أمّا" الدوغونية، ومن بعض أسرار إله الأشانتي "تانا"، ومن أقباس معبود الإيبو "أولوروف"، كل هذه الانساق مفتوحة إلى ما ستعلمك إياه الحياة في رحلتك.

وامتدت كلمات الحكيم وهو يلتفت عن يمينه ويساره:

ـ و"عمون" و "رعد"، هما جزء مما نعتقد يا ولـــدي.

ومسك الحكيم ذراع بامبارا، محاولا أن ينفذ ببصره إلى ما وراء نظراته، وقال:

ـ أُركب مطواع كل دين، كن داهوميا لك مذهبك الخاص، وطائفتك المميزة.

وتمتم بأدعية سرّية وأضاف:

ـ واصل إيمانك بقدسية الثور الأبيض، وادفع

لكل نهر قريب منك قربانه مع حلول الموسم،

ولمّا سألته عن الحب، قال لك في غير اضطراب:

ـ قلب المرأة دائما يسير على أكثر من رجل واحدة.

وبكلتا يديك المعرّشتين أخذت تتلمس أثداء الصخرة من داخل التجويف، شبيهة هي بقبور "الدوغون" ذات المغارات المحفورة في الصخر، ولكنك ولجتها بدون مراسم جنائزية مرهقة كدأب "الدوغون"، اقلعت عن النظر إلى أعلى، وخيل إليك أن عينك الأخرى فقدت قوة الإبصار، وانصرف بك التفكير تلقاء أروى.

وأروى كمحاربات قدامى "الأمازون" ترفض السير إلى الخلف، ترفض جريرة الملح، ومؤامرة السلاح، كانت تحب فيك إلمامك بدائق الفائت، ذات مرة قلت لها:

ـ ليتني كنت ضحية، رافقت أحد ملوك الكونغو إلى مثواه الأخير.

كدأبك دائما كلما واجهت موقفا حمّلت الملح بداية الانهيار، لقد قاطعت مذاقه على طريقة "الزنبى" فانتقم، والانتقام بداية السيرة ونهايتها.

رغم كل ملابسات الإيمان، وشوق البّعد المُضني، أخذت تغبط "المجابارريين" على الانتحار كلما أصبحوا غير صالحين للحياة، والحياة في نظرك عكس ما ترى.

والبون بين الماثل والحلم كاف للقيام بشيء ما، ولو على مستوى الذات، لأن الذات لم تنهزم بعد من الداخل، الحكيم قال لـك:

ـ اِحَذر الهزيمة من الداخل وساعتها ستنتصر.

فهل صرت منهزما لأن الماثل يضادد الحل؟ لقد مات جابر لأنه نبش العمق، ومات حكيم الأدغال لأنه تحاشى الدفع، كلاهما مات دون أن يشكّل الحلم.

وأنت،نزعاتك الباطنة تنتهشك من الداخل كحية الاستواء، تقاوم اللمس بالأنياب، والقذف بالفحيح، أميرة كونغولية تنتهي لذتها بإعدام عشيقها، هي الرؤى يا بامبارا.

في روع أروى، هل كنت وثنيا تغتبق ساخن الدم، تسجد للماثل؟ هي إذن تتعشّق فيك وراثية الإحباط المكتوم، واندفاعية البَعد/العدم، لكم لقنتك آداب استقبال الأكابر في غير انحناء، قالت لك في غضـب:

ـ الانحناء مضر بقوة الإبصار.

أما "تقية" فكانت تلاحق أعمق بسماتك الحائرة، وصرت تسأم قولها:

ـ العبد إذا جاع هجا وإن شبع تغزّل.

كنت تسميها كاهنة "القودو"، ولكن في سرّك فقط، ولأمر ما يذكرك مرآها بنساء "الجندان"، اللائي تضع كل واحدة منهن في كعبها من الحلقات، ما يساوي عدد عشاقها، لقد ظلت تعتقد أن أروى سرقتْ أنوارها، لذلك أسقطت نقمتها عليك، هو ذا تفسيرك الأوحد لحنقها.

لكم تفكر في محنة أروى، تمنيت لو صرت كاهنا مندونيغيا يحمل أدوات السحر والعرافة، يتأبط جذور النبات، والخيوط الصوفية، والطين اليابس، وأجراس، وبقايا نعال، ويضع كيسه على الأرض ليشخص حلا للمعضلات النفسية، ساعتها كنت ستعرف مكان ميمون الأول، وموقع اختفاء الفاطمي، و تقيس أعمار البلاطات العائمة في فلك التضاد، و النشوز العرقي.

وأروى الآن، تكابد لوعة الإبعاد، تفلسف آخر أطوار التمادي، ترتاب في فرار الفاطمي، وتنتظر إعلانا ما.

وخارج جناحها السابح في الانفراد والتزوّي، تعج المدينة بيومياتها، تطحن أحشاءها ذاتيا كمعدة نتنة، تتلقف صيحات الباعة، وأزيز الحدادين، كان خياط البرانيس يقابل نافذة الجناح، دون أن يعيرها التفافة واحدة، وخيوطه المكوّرة تستل أعمق نزعات السأم، أما ملاعب الأفاعي الأسود، فخلف جدار السوق تنفرد حلقته، تسمعت قوله الأجش:

ـ أفاعي الأدغال لا تقوى على استنشاق هواء البحر،

البحر يبيدها كلما اقتربت منه، فالهواء مقدمة إعصار.

سجلماسة من موقعك تتعرى بما فيه الكفاية، في علن تتقيأ مكبوتاتها، وهناك بالحي الخلفي تتحسسين آلاف الألغاز، تتلمسين نسيج أهات موجعة، ويتأزم الشبق.

وفي الحي الخلفي، يرسم ضارب خط الرمل سيرا ذاتية للبيع، وسجلماسة مجبولة على النظر صوب الشرق مبعث "زيز"، نهرها الدائم السيلان، ولو بدت أقل حجما من تهارت، على أنقاض مشهدها المرئي، يعاد بمخيلتك تشكيل مدينة "ميناس" أو "مينا"، وهي ترضع سفوح جبال "كزول".

أبوابها، دروبها، تمارس إغراءات تحرق المسافة الفاصل، وتهارت، أيام الصبا كانت لعبة جميلة، صنعها "ميناس" في تؤدة، جدرانها متوازية القمم، ودروبها جد متحاذية، وشجيرات السفرجل تمسح دموع القباب، إلى أن رفضت الأبنية أن تتساوى، فتجزرت حارات المدينة في كينونات شبه متجافية، عكس سجلماسة التي قالت هندستها بفواصل القصور.

تذكرين أنك نقمت ساعتها على القوافل الوافدة من الجنوب، لأنها بعثرت فسيفساء المدينة، فانتهرك يزيد بن فندين، ومن يومها أدركت أن تهارت، ستقول بالقَبل على طريقتها.

مسكونة أنت بدقائق دروب "المعصومة"، و"مجانة"، و"الخفير"، و"البساتين"، ومنحنيات باب الصفاء، وباب الأندلس، حيث تعودت على إطالة الوقوف شبه واجمة، كان خيالك يسترق مناخات الزهو، و أنغام السيوف، وخلف باب المنازل تتحلزن الجدران، لتتعانق في دفء متبادل، سرعان ما يتبخر بمنفرجات حي المعصومة، ذي القصور الفخمة، المتفاوتة القباب.

أثناء رحيلك الأول، ودعتك تهارت بكل دروبها، وأبوابها، إلا باب المطاحن الذي قلما إنسابت تلقاءه قدماك، من منافذه تعبق رائحة القمح ممزّجة بالعرق، والحناء والجلود.

الصوت ذاته يستحيل خليطا من الصخب، والرغاء، والشعر، والأمثال المهمشة، كان الحبشي وثيق الصلة بباب المطاحن، يتلقط فلتات الهمس " الغاني"، وسمر القوافل "اليمنية"، ويدبلج رطانات الرحالين الإسبان.

ومن بين رواد قوافل الليل كان جواسيس قرطبة، ومخبرو القيروان، ورسميو سجلماسة، وفاسيون يحسنون المقايضة.

أما حادي قوافل البصرة، فكان برتبة ما في قوات ما وراء النهر، الكل كان يتاجر بطريقته من أجل مومياء القَبل، الكل يناهض بُعدا تهيمين به كحبيب مغتال.

ـ عودوا إلى ما كنتم عليه قبل البَعد.

لم يجفلك القّبل، والبّعد ذاته لا يحمل إلا أعراضه؟ القَبل يعني بداية النهاية، والنهاية شاه بندر كما قال حكيم الأدغال، وكما ردّد الفاطمي في عزلته، وأنت لا تقولين بالخواتم.

القَبل مغامرة التهمت جابرا، ومصعبا، والحسين، والمختار، وحمدان، وابن السمح، والفاطمي ذاته يطارد باسم القَبل، حين سألته ممثلتك نيابة عنك:

ـ وهل لا يزال للقَبل ضحايا؟

قال وهو يحك أسفل ذقنه:

ـ ضحايا القَبل هم عشاق البَعد يا ابنتي.

وأردف دون أن ينظر إليها:

ـ الضحية عاشقة بطبعها، طلالية الانكفاء،

وأمامية التطلـع يا ابنتي.

خواطرك بالتساوي موزعة بين ميمون الأول، وابن خاله الأفلح، وهموم "تقية"، ورحيل الحبشي، ومنفى بامبارا، والقَبل و البَعد يحزّان خارطة هيامك المزمن، فبقدر ما يوغل القَبل في التضاد و الانشطار، تُثقل البَعد ضبابية داكنة الألوان، هل انطفأت رموز البَعد تباعا يا أروى؟ أم لماذا يتليّل الأفق بمسحات قبَلية؟! الذي تدركينه أن القَبل عكس البَعد، سريع النفاذ كما لو أن النفس مركّبة طوع رؤاه، لم يقتض لكي يُمكّن له سوى أيام وتبخرت خيالات البَعد، واستعادت الأرض بردعتها، افتقد الشمع رومنطيقيته، و من جديد تطوبرت بغال الصيد، وبوادي البصرة أُعدم أقنان بجريرة الإساءة إلى الريع المُرابي.

وقبل عبادة الصمت، ماتت كاتبة السر بين صغارها حين أحرق يزيد آخر الصور، مثلك ومثل جليلة الوائلية، عاشت انفصاما أبديا بين الماثل والراسخ، الماثل الذي طعنه البَعد دون أن يتمكن منه، والراسخ الذي هرب إليه حكيم الأدغال الزنجية، دون أن يصطحبه أحد.

هو آوان النظر إلى الضواحي إذن، وكيل القافلة أربكه انصرافك الكلّي إلى كوة الجناح، كانت قوافل الشمال تخبّ، محمّلة بنفحات مكشوقة من ليالي قرطبة، يحف بها فنانون متجولون، يعرضون مجلوب الإيقاع، ومحظور الشبق، وباعة فرادى يخفون تراخيص قاضي الجماعة، سماسرة قدود التمر السجلماسي، والحنطة الهجين والقطن والحناء وأصيل التوابل.

ـ هو آوان آخر يا وكيل القافلة

وحاول أن يستجمع قواه للوقوف حتى لا يحادثك جالسا.

ـ أيا أوان تعني سيدتـي؟!

وبقوة تنـهدت:

ـ لكأني بيحي بن يحي قد قال بالحياد مبكرا.

الصمت يقرفك، لأنه دعوة مفتوحة للانكفاء نحو دهاليز النفس المخيفة، لأنه وحده الذي يمنح الأخر اقتدارا على الفعل المعاكس، لأنه جريرة قَبل مجسم، كولهانة أسطورية تتراقص عبر مخيلتك

أطياف الأحبة وقد مضوا تباعا، همساتهم تناغيك وهي تخترق فواصل الأزمنة المستهلكة، القائلة بالعياء المسبـق.

دائمة الدفء، تشع في خطاك الوهنة ثباتا ما، والغد المقنع ذاته تحرجه، بكلتا يديك أمسكت على رأسك في لحظة صداع مركّب، حين أسرّ إليك وكيل قافلتك بإفلاس صفقة التمور والحناء، قبل أن يفصح أكثر، أدركت أن قافلة "تقية" أحرزت سبق الإياب.

ـ ألم أقل لك أنه آوان آخر

ـ وكيـف؟

ـ يبدو أن قوافل الأندلس قد اعتزلت أنفاس "يحي" طواعية.

وأربك الوكيل خلط ما تطرحين، كان المقدّر عنده أنك تعنين إفلاس القافلة فحسب، فما سر إقحام يحي بن يحي؟! وأنت شاخصة العينين نحو الأفق المغشّي أضفتِ:

ـ لطالما هامت القوافل بآخر فتاواه.

وأحسست بالحاجة إلى بامبارا، إنه يدّخر تأويلا للذي يحدث، بامبارا هذا السفر المفتوح على الآتي، به فقط تُعلل الطواريء، وهو مثلك تماما مأثورات الأمس سارية المفعول في دمائه، كما لو أنه محسوب على جيلـه هـذا.

تناولتِ ثمرة "برني" خضراء، وهي من ألذ ما يجود به نخيل سجلماسة، ودعوت بمئزر الصلاة، وعلى استعجال زارك القاضي بعد أن أخفى بعض ألواحه خلف باب الجناح، وجادلك في زجر الكبيرة عند " جابر بن زيد"، فقلت لـه:

ـ ما دام لكل مدينـة لوحها، فلا ينبغي الحديث عن جابر إذن.

وقهقه دون أن يشاركك تمرك:

ـ في الخـلاف رحمـة

وأشاح برأسـه:

ـ ثورة الكلاميين في بغداد مقلقـة.

و في يأس أكملت قولـــه:

ـ وهل غاية الكلام سوى الكلام؟

ـ بالكلام فقط يأخذ الثابت شكل المتغير يا أروى.

ـ ولكن الثابت لا يقول بالكلام إلا في أولى مراحل تشكله.

ـ النظّام المعتزلي يخوض حروبا على غرار جهم بن صفوان.

وهذا مقلق.

وقال كبير فقهاء سجلماسة وقد حضر منذ حين:

ـ وفيم قلق سجلماسة من حروب بغداد أيها القاضي؟

ـ للمعتزلة تغلغلهم في تهارت، وقرطبة، وهذا يقلقنا كجوار.

وتزوّيت عن مبارات الرجلين، ما تلحظينه أن الفقيه السجلماسي كان أكثر اطمئنانا إلى كلماته من القاضي.

وعاودك حديثك المُركّز، أنت لا تتعشقين أحدا بعينه، تتعشقين أحدا مقتدرا على تشكيل ما تحلمين به، والذي يُعشق مات، وقلبك يسرمد الحياة، يزدرد أشواكها.

أيام مدرار جرفك الاندفاع نحو الغد، وأيقنت بقرب الخلاص، وتأكد حلم قدرتك على الخلق حين صار ميمون الأول أميرا، أم البنين، والخيزران، وإيرينا، وطروب، نحتن بأظافرهن على جداريات الفعل في ظل أزواجهن، وأبنائهن، فكيف خانك الظفر؟ تماما كما خان فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، أيام أبيها، ثم أيام إخوتها الخلفاء؟!

ألأِنك وفاطمة تقولان بشيء مغاير؟ ألأِنكما تنزعان إلى ما فوق المرئي؟ أم لأنكما لا تحسنان صناعة الفعل في الدروب المألوفة؟

أروى، هل صحيح أن الحب يضمد نزيف الدم أم يرتسم بديلا له؟! لا أحد يدري، فالدم في نظرك آخر أطوار الاحتكام، إن لم يصدر عن الناب، فصدر عن الذيل، وفوق مزيج الدماء المطحلبة، يرتفع الغالب الأول دائما، واختلط حديثك الداخلي عن لون الدم وجدواه، بأحاديث الفقيه والقاضي عن الكلام، من ينجب الآخر يا أروى الدم أم الكلام؟ أم العكس؟ وفي سرّك عددت ضحايا الكلام، وحين سمعت السجلماسي يقول للقاضي:

ـ القيروان ذاتها تعج بالمناظرات.

قلت له:

ـ كالنار هو الكلام لا يخبو إلا حيث ينعدم الهواء.

وسألك السجلماسي صادقا هذه المرة:

ـ من يشحن شاعريتك يا أروى؟

ندت منك ابتسامـة:

ـ الغد يا أبتاه الغد.

وبعيدا منهما رددت مقولة عمر بن عبد العزيز:

ـ "" لا خير في حق لا يحيا إلا بالدم.""

وفي غياب الدم لن تسقط " تقية" و"ابن المنتصر"، كما لم يسقط من قبل يزيد، والوليد ابنه، ميمون لم يخطئ إذن حين ألحق مادة الدم بالفتاوى الكبرى، كان سجلماسيا أكثر منك، ومن أبيه مدرار، ولو التقمته سجلماسة في إحدى غضباتها الموسمية، والحبشي قال لك إثر عودته من قرطبـة:

ـ يحي بن يحي ذاته دعى إلى الدم ذات مرة.

ـ قبل أن يطـأ البـلاط.

ـ ساعتها كتم إجفاله كجواد جموح يا سيدتي.

ـ فاعتزلت القوافـل رؤاه.

وأضفتِ متنهـدة كدأبـك:

ـ الدم، دم الناب قال كلمته في "غيلان الدمشقي" و"ثيودورس"،

وفـي أخريـن.

وانتظرت من الحبشي أن يسعف ذاكرتك بأسماء أبادها دم الناب، فعجز، كان عكس بامبارا لا يقوى على الإبحار بعيدا، وكما لو أنك تحادثين نفسك:

ـ ودم الذيل، خضّب يزيد بن أبي مسلم، كاتب الحجاج، قبل أن يوشم

حراسه على طريقة الروم، وابن موسى بن نصير الذي

اغترب خلف ابنة لذريق، استسلاما لحدقاتها البحرية اللون.

ـ الدم يرفض الافتتـان يا عـم.

من داخل الجناح تجفلين، يجرفك غد مغاير، مجلّل بالدم الذي تمقتينه، وهو يهم بالرحيل إلى تهـارت قال لك الحبشـي:

ـ أحملّك سلامـا إلى بامبارا يا سيـدتي.

وأغرورقت عيونكما معا، وقلت لـه:

ـ إنه سجين بجريرة غيـره.

في يومياتك الشفوية لم تقرئي عن طيف أمكنه الانتساب، إلى خريطتك المجبولة على الإيغال في اللامشاهد، من ذا تخلل نبض قلبك ذات مرة ؟! لا أحد فيما تدرين، مدرار ذاته لم يطله المد إلا أحايين التعارف الأولى، ثم تجاوزه المد إلى حيث تتحلق أيتام الرؤى المهددة بالانتفاء.

منذ أن وعى قلبك لم يخفق إلا لجابر بن زيد، وجابر ابن جيل تعاقبت خلفه أجيال، أنهكها الرحيل خلف تشرذم الرؤى، وتقاطع النظريات المتطاحنة، قلت لعبد الوهاب:

ـ كن كجابر، لا تكن يابسة في بحر.

قـال لـك:

ـ ولكننـي بحر يواجه يابسـة.

ـ لا تسند ظهرك إلى قرطبة لمجرد أنـها عدوة القيروان

وبغداد، كن بحرا بحق يا أبا الأفلح.

ـ لن تنظر بغداد إلى تهارت و سجلماسة وقرطبة

إلا كجزر في بحر، لا بد أن تذوب يوما ما

ـ وهن ينظرن إلى بغداد والقيروان وفاس كجزر

لا مناص من ذوبانهـا.

وأضفتِ حين سكت عبد الوهاب فأطال:

ـ جابر قال بالذوبان فكاد أن يذوب فيه الكل

يا أبا الأفلـح.

ـ دون أن يذيبـه يا أروى.

كالبكاء عندك الحب مذهبان، حين يُطعن كلاهما يقولان بتمازج الصيرورة، ولأنك أحببت البَعد قبل الذي أردفه، وأنكرت على النبض انشطاريته في بدايات الانكفاء، وأقررْتِ أن المعلّم وحده لم تخلف مذكراته طيف جارية، لم تلطخ أوراقه السرية بقع دم، في زمنه صامتِ نوازع الشرق دون أن تغتال الحنين إلى عاطفتها، والشرق عاطفة تنتظر اللقاح.

كلما أجهشت عيناك بالبكاء، إلا وشعرت أنك تواصلين بدايات النحيب المفتوح، الذي أعلنته فاطمة ساعات احتضار قرينها، وسألت قرنفلة:

ـ قرنفلة؟ لماذا تقصر أعمار العظام عادة إلى هذا الحد؟!

ـ سيدتي لا أفهم ما تقولين.

ـ الأحرى أن ترفضي الفهم يا قرنفلة، ولو أتيح لك.

وقاطعت تفكيرك حلقات ميمون الأول، دائما تفتحين أجواء المتقضي، وكأنك عجزت عن مباشرة الماثل، هل تجزأ المرئي إلى أن صرت تحتقرين مناغاته؟ أم صار التأوب دأبا وعادة سرية، تمارس في كل حين؟

ـ أنت تحمّل المذهب ما ليس فيه يا ميمون، وتدّعي أنه منه؟!

ـ المذهب ليس بمتحجر إلى القدر الذي تظنين.

ـ أصوله ترفض ما أصبحت عليه فروعه في عهدك!

وقبل أن يبتسم قلت له:

ـ وفي هذا خطر عليك.

وابتسم فعلا:

ـ خطر علي؟ ممن؟

ـ الصفرية الخام توجب الثورة على الاستبداد وأنت قد

وقاطعك بلهجة حادة غير متوقعة منه:

ـ أرجوك لا تنصّبي من نفسك خيزران ثانية بأرض سجلماسة

وكرست تنهدك الممضّ، وقلت محتدّة:

ـ كان للخيزران هارون والهادي، وأصبح لي المذهب وميمون،
فإلى أيهما أنحاز يا ترى؟!

ودنا منك بخطى صامتة ثقيلة:

ـ ألهذا الحد انفصل ميمون عن المذهب يا أماه؟!

ـ حينما يرى نفسه بعيون الأخرين نعم.

وفي وقفته اعتدل أمامك، واضعا يده على قبضة سيفه:

ـ على أي حال لا وقت لدي للجدل، فمهمتي أن أُبيد أعداء المذهب،
وبأقصى سرعة ممكنة.

وشزرا رمقته:

ـ تعني أخاك ميمون ابن "تقية"؟!

ـ والمغالين في تطرفهم معه.

وقذفت بتنهيدة محمولة جوا:

ـ كلكم يتهم الأخر بالتطرف، وكلكم يحتجّ باسم المذهب الأصل،
وكلكم في نظري مغال.

ـ وما المذهب الأصل في نظرك؟

ـ في وصايا جابر بن زيد.

ـ لكأنك تتحدثين عن غير الصفرية؟

ـ ولكأنك تعني الصفرية في نسختها السجستانية.

وكعادته فرّ إلى صمته، كما لو أنه يشيعك إلى خارج ديوانه، ودنت منك "نداء القلوب" وقالت:

ـ سيدتي، ألم ينهكك التوغل في الأمس؟

وابتسمت في وجهها:

ـ حين يعجز الحاضرعن شدّ أعيننا، تنفلت نحو الماضي.

بك أستطردت أيام ميمون المتقضية، فاستعدت بعض ومضاتها الهاربة نحو العدم، في حديقة القصر حيث تعودتِ على قتل الوقت الزائد، حيّاك بامبارا في ثقة، منك دنا، حاول أن ينحني فمنعته، في لهجة مطمئنة قال لـك:

ـ عبد الحميد الجناوني، وأبو سهل الفارسي بسجلماسة.

وأفرحك الخبر، فأسرعت بك خطاك صوب الجناح الرسمي، كان الوفد لا يزال بين يدي ميمون الأول، ولجت الباب، باب المقصورة واعجبك في ميمون، أنه يخص وفد تهارت بميزة ما، وسبقك صوتك:

ـ مرحى بعالمي تهارت وما حولها.

ـ مرحبا بأميرة البلاطيـن.

غير مألوف هو الفضول الذي يستبد بك هذه المرة، اتضح من بين اندفاع طرأ على نبراتك الصوتيــة:

ـ وعبد الوهـاب؟

ـ علـى أحسن حـال.

ـ وتهارت؟ و ميناس؟ وكزول؟ وتلوت منداس؟

ـ تنعم بحكمة الأمام يا أروى.

قال الفارسي قبل أن يباغته سؤالك التالي:

ـ والفتنـــة؟!

تراجع الجناوني بنصف قامته المديدة، وقال وهو ينظر إلى ميمون:

ـ ينفخ البعض في بقاياها يا أميرة.

وأردف دون أن ينتظر:

ـ لقد نصحت لأبي الأفلح بالنزول عند مطالب الداعين إلى التغيير.

وقال ميمون وكأنه مُعنـى:

ـ ولكن الأمر يتعلق بتحوير وزاري لا يخصهم؟

ـ المذهب يتيح إقالة كل منحرف عنه، ولو كان الإمام ذاته.

واتجه بصر أروى تلقائيا صوب ميمون، وكأنها تجد في كلمات الجناوني حجة أخرى تؤيد موقفها، وتناول القاضي فاكهة برني من الطبق الموالي، وقال:

ـ هذه مبالغة يا أبا عبيدة، النظم لا تزدهر أمام الرأي المفتوح بالمطلق عادة.

وسألت أروى أبا سهل:

ـ و "مهاة" الفلكية؟

ـ أه. ابنة عبد الوهاب، لقد بزّت أخاها أفلح في علم الفلك،

صارت فلكية تهارت بحق.

وقال ميمون موجها خطابه إلى أروى:

ـ أماه هل بلغك أن الجناوني يزور سجلماسة رغبة

في العثور على مخطوط "سلمة بن سعد"؟

وتضاحكت أروى:

ـ شبيه هو بأميره الذي يفرد المشرق بقافلة موسمية،

لاقتناء آخر المخطوطات.

واستعدتِ ملامح المعصومة أيام الرستمي الأول، وبدائل البَعد الأولى، وثغر نداءات دمشق في العتمة، وتمتمت في غير إفصاح.

ـ عودوا إلى ما كنتم عليه قبل البَعد.

وبادهك الجناوني وكأنه فوجئ:

ـ ألا تزالين ترددينها يا أروى؟

ومنذ صغرك.

وتنهدت مطولا وقلت له:

ـ القَبل في نظري قبلان، وأنا أألف بَعدا مجهضا بالضرورة.

وقال ميمون ضاحكا بدوره:

ـ لا أعتقد أن كل سكان تهارت يلهجون بهذا

الذي تلهجين به، أم الأمر عكس ما أرى يا أبا عبيدة؟

وزمّ الرجل شفتيه وهو يقول:

ـ لا أدري والله، إنما أروى تشفق من معايشة القَبل لأنها

مولعة بالبَعد، هائمة بتصنيف الزمن عكس رجاء بن حيوة

مخضرم الوزارتين.

و"رجاء" يحسن الإفتاء كلما تلمس تيار الفعل في خلد الخليفة، نفسانيا كان "رجاء" يستقرئ التوجه ثم يقول به، يبشّر بالإسناد دائما، أما أنتَ فترفضين الانتساب لأكثر من زمن، وكأنك الزمن ذاته، وعاودت النظر إلى لحية الجناوني الذي كان يخوض شبه مناظرة، مع قاضي سجلماسة في أصول الحكم، وانشطاريات الرأي المفتوح،

صحيح أن موقفه أيام البيعة دفعك إلى ما يشبه الحنق، لا لشيء سوى لأنه كان موقفا غير عاكس، ولكنك تكبرين فيه انتصاره للرأي المفتوح على طريقته الخاصة. وقلت له:

ـ وثورة خلف بن السمح؟

ـ أُخمدت.

وأكد لك:

ـ الموقع عندنا لا يُفتك بالقوة يا أميرة.

دائما لا يتحدث إلا من داخل موقفه، هو ذا الجناوني، يحاجج عبد الوهاب إلى أن يقنعه، وقلما اقتنع بإيحاءات عبد الوهاب، لذلك ظل كلاهما يُكبر في الأخر اكتمال الإشارة. وقلت:

ـ لكم أحزنني مقتل "ميمون" بن عبد الوهاب أثناء هجوم النكّارية على تهارت.

ـ حتى وقد انتقم له الأمير أفلح من المتآمر ابن فندين؟!

وتنهـدت:

ـ ابن فندين، اجترأ على إدخال صندوق المؤامرة إلى غرفة الأمير، لولا فطنة عبد الوهـاب.

وقال لك أبو سهل الفارسي:

ـ الغنـى مقدمة الطغيـان.

ـ صدقـت صدقـت.

لـــــوحة ثانيـــة

الفصل السابع

"المقنّع الخُرساني بقاطع مجلس الرشيد"

الفصل السابع:

"المقنّع الخرساني يقاطع مجلس الرشيد"

إلى صمته اختلى المدّاح، سيولة الزمن تبدو مفككة أحيانا، خارج الحلقة تزوّي، يصطنع وقارا مطعونا، وقال:

ـ لو نؤجل البقية إلى السوق القادم؟

وتبسم العجوز وكأنه فوجئ:

ـ لا تتمنع على طريقة كبار التجار، خذ.

وناوله قطعة ما، واعتذر المدّاح لأول مرة:

ـ أكاد أفتقد الخيط في خبر أروى.

واشتط الأصلع:

ـ تعني أنك عجزت عن الإلمام بالذي حدث؟

وبنظرة حاقدة رمقه المدّاح:

ـ أنا لا أردد ما حدث فقط، أصول المدح

تلزمني أنا الآخر يا أحمق.

وقام العجوز في عياء فوضع قطعته النقدية في يد "القصاب"، وقبل أن يأخذ مكانه، استعاد المدّاح حيويته، تصدّر الحلقة من جديد وقال:

ـ سبعون دينارا يوميا فقط، توصلنا إلى عاصمة الشرق "بزنطة"،

من يتطوع بتسديد تذكرة السفر، من؟

وقال العجوز:

ـ وماذا سنصنع في بزنطة؟!

ـ لا تقاطع الدعوة يا شيخ، وإلا صرت "ميمونا" ثالثا.

وبيده صفق المدّاح:

ـ أين رواد الرحلات والمغامرات؟

رددها مداح الحلقات السامرة بتثاؤب، ثم أضاف:

ـ أكملوا السبعين دينارا يا سادة.

ودون أن يلحظ حركة ما، انصرف لحن القصبة عن المرئيات، لاحقه الدف غاضبا في ارتجاف، التصقت عيون الأطفال بعمامة "القصاب" وهو يترنح برأسه تبعا لإيقاعات النغم الشارد، واختطف الأبصار المدّاح بهيئته الخاصة في إبراقية حين خطا خطوتين إلى الوراء، وأشاح بخيزرانه راسما حركة شبه بهلوانية.

مسح البطريق على جبين "إيرينا"، وقبّل الأرض على أنغام الحرس، وارتبك الصهيل قريبا من أعتاب المعبد الروحي.

رسول الأميرة "تقية" بلغ أعتاب القسطنطينية يتشمم رائحة عبيد الله المهدي، بالفندق المركزي الضخم قضى أولى لياليه، جوازه كان مثقلا بالتآشير القومية، ودمغات الشك الأخوي، وبرواق الوضوء التقى ابن الغزال شاعر قرطبة، وسيد كرنافال عبد الرحمن الثاني، التقاه يمدح الفضل بن الربيع بقصيدة سريـة، ساعتها كان راشد الزيدي يحمّله تحية إعجاب مختلسة إلى زبيدة، ومن داخل حيرته تساءل السجلماسي فعلّق ابن الغزال:

ـ خارج الخارطة يتعرّى كل شئ يا أخي.

وتلقاء القصر تحرّك يتعثّر في ارتيابه، أنهج القسطنطينية تلفّها همسات الحماية العباسية، وفيالق الإبحار تنتصب أشرعتها، وعازف الرباب الليلي يجنح إلى النوم قبل الظهيرة، وقد سلّم الامبراطورة تصاميم الحصار الذي يقوده يزيد بن مزيد على أذربيجان.

ـ مستشار الرشيد يا مولاتي؟!

ـ زيارة غير مسبوقة باستئذان؟!

ـ أرغمته فصائل مجهولة على الترجل، فقضى ليلته على الصهوة ينبش الصبـــاح.

ـ حدّثني عن كوكب الرشيـد؟

ـ الرشيد كرسي راقص الأذرع كما تعلمين،
تتناسخه الأوجه الهائمة بالمفرد، في موسم
الانشطاريات العربية الكبرى.
أينعت رؤوس في غفلة الحجّاج، وتيمنت بغداد قبلا
دمشقيا، وتعرّج آخر الثغور المغربية.
ـ وماذا يريد رسوله؟ هل قدم بشأن الحماية أيضا؟
ـ لما يفصح بعد، شأنه شأن مبعوثي سجلماسة،
وقرطبة.
تزوّى الحاجب واستمرت "إيرينا" تحادث نفسها جهرة:
ـ الحماية أبت الانسياب داخل الخرائط المعشوشبة الرسم،
رسول الرشيد يجهل ساعات وفاقنا الضاربة في الهزيع،
وتعويم سكة " شارلمان" المضروبة على منضدة أفخم
فنادقنا.
هي الحرب نفق العودة، وموعد استلام " ذات الصواري"
أيام الدعوات الصامتة على أضرحة المواقع المشعة،
ـ كلّمني عنهم قبل لقائه يا مدير المخابرات.
ـ سيدتي، أنجبت دولته دزينة دول طرية، قابلة
للشواء، وأنجبت الدول إمارات، وأنجبت الإمارات.
وقاطعته الإمبراطورة:
ـ كادوا يجددون عهد الدولة المدينة التي عرفها اليونان
في أزمنة التشكّل الأولى؟
ـ هم أول من ابتدع الدولة/القبيلة يا مولاتي،
ولكبرى القبائل حق إنشاء أكثر من دولة.
ومن عرشها قفزت" إيرينا":
ـ هائل، إنها تقليعات جديرة بالبحث.
وضحكت، وزايلها الحماس الأول:

ـ عينة زنجية بلون آخر إذن.

وهمت بالإضافة فانتظر:

ـ ولكن ماذا يريد؟

تساءلت الإمبراطورة.

ـ جاء يطلب رأس "رافع بن ليث"، مقابل التخلي عن أطماع الحمايـة.

ـ هل وصفها بالأطماع حرفيا؟

ـ بكل تأكيد.

وتحركت "إيرينـا" في مجلسها:

ـ ومفوض حقا هو لإدلاء؟

ـ هي ذي بطاقته بين يدي مولاتي.

وقالت للجرمانية:

ـ واصلي قراءة التقرير السري:

((في غرفة الفندق ذي الطوابق العشرة، افترس جرابه المصّر بأكياس العملات السهلة، واهتدى إلى فنائه الشيخ المجاور منذ عهود الريعان، فسأله عن ودائع المدينة، ومفاتيح الأبواب الخلفية، وبالمقهى الليلـي أفرخ انتظاره))

وقالـت الجرمانية:

ـ هل تستزيدنـي مولاتـي عنه؟

وهزّت الأمبراطورة رأسها موافقة، فواصلت الجرمانية:

((في أيامه الأولى، عازفا كان عن سبر الأسرار الملتوية،
وأعناق القلاع الفضة، وتواشيح الأنفاق العائمة تحت البرزخ القارّي،
وأبراج الكر الثاني، ولما قرر أن يتزوجني تحت ضغوط نبضه
بكى صاحبه فرقة الدار، فاتهمه بالمعارضة، وابتسم صاحبه
للغربة فشك في ولائه للوطن، وهائما ظل بالتماس المدد))

ـ وماذا بشأنه أيها المخبر؟

ـ ((دعاه مستشارنا المحترف إلى الشاطئ ليقسم اليمين،
وأفرده بمخطوط عن مغامراته الجنسية في دهاليز الوقار المكتسب،
فتعهد بحذق الترجمة الفورية.
لقد نام في بذلة الميدان، وانتشت بسباته عذراء البحر،
وراقص نسيم البوسفور أمواجا حديثة الطفو على منخريه الأشيبين،
وتعثر في قبو قنينته السعفية حين همّ بمنادمة ملكة سمّاها "ماء السماء"،
عيناه الوثبتان تغازلان لحاء الذكرى، ويفتك بزاده التمادي،
فيستفسر كاتب السيّر عن لون الطريق، وخزانات احتياطي
النبض المتبقي، عن أسواق كسائه المطرز بخام الليف،
وعن ختام لقطات النزهة.
نام يا سيدتي، تكسوه أنوار الكاميرات الزاهية، ويدفئه
النداء المرسل عبر خطوط وهمية، مولعة بالغريب، وقاعات
العرض في بغداد تنتحل الطلاق))

مسكونة "إيرينا" بمخاوف بغداد، الرشيد أنذرك للمرة الألف، وقرقعة "يزيد بن مزيد الشيباني" تسمع على مسيرة ليال، وأسلحة الدفاع أمامك تهتز كل يوم، شهر مضى مكثت ساهرة، يعاودك الأمس فاتحا، تتحلق حوله ساعات الراهن المسجّي بالألوان الثقيلة، في نية شيخ العرب تشكين، ثم تتسامحين لأنه نصف مجنّس، ولأنه من قلائل متكلمي الآشورية، لم يحظ بمقابلتك، ولكنه يتسمع وقع خطوك من حوله، إليك يخيل أنه يحصي أنفاسك المترددة، من وراء تحصينات القلاع المخيفة، لم تمت فيه نزعاته، وهو ما يقلقك.

ـ وشيخ العرب؟!

هكذا كنت تسألين عنه، والسؤال عنه في نظرك انتحار بطيء، أوهم المُخبر، و صده الوهن

عن مفاتن الجرمانية، وكان يقتات السمك من شاطئ مرمرا، ويلّوح في وجه السفن الراحلة بكلتا يديــه،

((يقطّب دائما وتفرز عيناه أملاحا رخوة، يحس بالغثيان حين يتحدث عن غير الحرب، يحذر من عدوى الهجوم، ويتمتم بالآشورية))

ـ أعرضوا على رسول الرشيد كشفا بأربعين جـارية،

من مطلقات الشركس مقابل رأس "رافع بن ليث".

ودنا المُخبر تحت ضغط المفاجأة، نحوك توثب في اندفاع:

ـ نفتدي "رافعا" يا سيـدتي؟!

ـ نفتدي الحماية يا أحمق، زوال رافع يعني التسليم بحمايـة الرشيـد.

وقبل أن تعلن إيرينـا عن انفضاض مجلسها المسائي، قالت للمُخبر:

ـ ما آخر أطوار رافع؟

ـ يلح في طلب الفرسان للانقضاض على الرشيد،

هو ذا تقرير بحالته النفسيـة يا مولاتـي.

((رافع، يرتاد سور بزنطـة، يستظهر بطاقتـه البيضـاء للحـراس السبعـة، يتجاذبـه الإبحار نحـو اليابسـة، ينـام كالأخريـن يا سيدتي، ويشرب نبيذه فور كل صلاة، يدمن الإنصات لمحطات النداءات الرسميـة، ويتفل بعد أن يزيل قنـاعـه، يتوهمـه بائـع القماش أميرا، وجاريته الطبرستانيـة يستهويها البريق، والعطور المهربــة.

يتقصى أثر "بابك الخّرمي"، الفار إلـى بزنطة أيام الفتنـة، ويدين إعدام استاذه "المقنـع الخراسـاني" جهرة))

شوهد يحادث شيخا مشبوه الرحلة، قيل إنه نصف متجنس، ويحسن لغـة ميتــة.

وقاطعته الإمبراطورة:

ـ شيخ العرب إذن؟ المسكون بالحماية العباسية.

ـ الذي يسمي نفسه شيخ بزنطة يا مولاتي.

وقال كبير الرهبان:

ـ رافعَ من أجل أبي مسلم، يصلي نحو البحر عاريا،

ويقاسم "المقنع" نذره، ويهامس عشيقة

مجهولة إذا جن الليل.

وقد اعتدلت في وقفتها:

ـ مدّوه سرا بسيف "زينون"، وحيّوا الرشيد على لساني.

في الطريق إلى "أيا صوفيا" جلوز أمامك الراهب، وأُعلن النفير في شوارع خلفية، مجبولة على النقيق والتذمر، كانت آثار جوستينيانس لا تزال ماثلة، حين تستقرئين الجدران، ساعتها لم تأمري بإحراق لوحة تستهجن عبادة النار، فقط نصحت الرسام بتخثير السواد. وحين غادرت أعتاب الكنيسة العجوز، كنت تذكرين "اليون الرابع"، وتمسحين دمعة مختلسة، رقتك ظلت ترفض غلظته، وحاصر همسك صراخه، أثقلت نظراتك عينيه، تدنى منك بجذعه الأعلى من على متن عرشه المحلي بالأحجار الكريمة، وشممت رائحة طيب مستورد قريبا من عنقه، قال لك بنبرات تخافينها:

ـ لا تجددي إغراء " أفدوكيا"، لقد ولى عهد

ثيودوسيوس بغير رجعة.

ـ لكن العظيم جوستينيانس ذاته لم يضق يوما

بأنفاس "تيودورا" يا صاحب الجلالة.

و العربة سابحة، بادرك وزير الحرب، وكأنه ينتشلك من قبضة الفائت الذي تكنين له إعجابا ما، و تخصينه بلحظات مثول قد تطول أحيانا.

ـ سيدتي، الحماية أهون مم.

ودون أن تلتفت قاطعته:

ـ إخرس، أنغضب سفير" تيماء"؟!

وتنهد متراجعا:

ـ تيماء؟! طعنة خلف موقوتة، ولكن ماعساها
صانعة في وجه الرشيد؟!

ومن جديد نصحته:

ـ قد تصنع يوما أيها الوزير، تيماء خلاصة
أبدي الثأر الذي أوصى جوستينيانس بتذكره دائما.

ـ جوستينيانس؟!

ـ في حروبه مع "أنوشروان" قال: متى عجزتم،
رابطتم خلف غيركم، كونوا قلبه وليكن الذراع.

تُدخل إيرينا رسول الرشيد عربتها السابحة، وتنقضي جولات صمت مركّب، وخيّل إليها أنه يتم مطلع طلالية خالدة، وسألها:

ـ ولكن كيف اغتال "رافعا"؟!

ـ رافع يرفض الاغتيال.

ـ والفاطمي خريج سجن سجلماسة؟!

ثم سكت، وقال قبل أن تنبس الأمبراطورة:

ـ ورسول الحَكم بن هشام الأموي ؟!

وابتسمت إيرينا طواعية:

ـ كنت أنتظر سؤالك عنه قبل غيره،
فهو أموي.

وأوغل الرسول في صمته الثقيل ليمهلها فرصة الحديث، فقالت:

ـ لن يزور عبيد الله المهدي بزنطة كما توقع
خبراؤكم، ماكثا لا يفتأ بسجن سجلماسة.

ـ ورسول أميرها ماذا يصنع ببزنطة؟!

ـ في رحلة تمويه فحسب يا رسول الرشيد،

حتى لا تُهاجم سجلماسة من قبل مشاة الداعي.

ومن موقعه كاد يقفز:

ـ تمويه؟!! تدركينه ونجهله؟!

واتسعت ابتسامتها أكثر:

ـ لا تنس أنك تعني سجلماسة المستقلة؟

ـ وولاؤهـا المعلن على المنابر؟!

وبلهجة كاريكاتورية فورية:

ـ قد تغضب، فتحوله تلقاء قرطبة أو

ـ أو مـــاذا؟!

ـ أو تستغل طموح الأغالبة، فتستقل نهائيا كتهارت.

ومرر الحديث بعيدا عن بؤرة سجلماسة، فقال:

ـ ما يهمني هو إعدام الفاطمـي.

ـ ليس قبل أن يصير كإدريس الأول، وعبد الرحمن الداخل.

وسألـــك:

ـ وماذا عن الأربعين جاريـــة؟!

ـ والحمايـة ألا تهمكـم؟!

ـ همّشها البيان الختامي وضاق عنها حجم الزيارة.

وحيّته سكرتيرة إيرينا بتفويض، وخاطبت عشيقها فافتقد مترجمه، الذي أبحر في لحظات نظر قصوى.

واستفسرتْه الجرمانية عن أيام العجم، ووحشة الكنائس في "تجران" بعد زيارة المطران، وأخاديد المسرى، ولوعة المخاض في تصاويب أحراش " نابلس" الكاتمة للنعـي.

ـ هل تحسِن ثنائيات الرقص يا صاحب السمو؟!

قالت الجرمانية في وقـار:

ـ وتصّلب الحدقات، وموتور البسمات العازلة

للدفـء، في زوايا حانات التفاوض الأحادي.

أضافت سكرتيرة السكرتيرة:

ـ اِقفلوا أبواب بزنطة في وجه شيخ العرب.

ودعت الإمبراطورة بإحضار الجارية الجرمانية أثناء ساعات فراغ، فدخلت، وداعبتها "إيرينا" بقولها على عادتهـا:

ـ جمالك يغريني رغم كوني امرأة يا جاريـة.

ـ جمالي في خدمة التاج البزنطي يا مولاتي.

ـ هيـه وماذا عن عشيقـك الجديـد؟!

ـ جاسوس بغدادي متجول، يدعو إلى غير ما يُضمر،

يلازم رسول الرشيد كظله، ويُبرق بخام القول

قبيل السحر بقليل.

عمل في قوات "يزيد بن مزيد الشيباني" وأُبعد أيام الرحيل

إلى "مرو"، مولـع هو الأخر بأحاديث الحمايـة، ومرق الجنادب،

وشقراوات الدرب الخفي ليلا، يعتصر الوجنات الملقحة بتلاقي

القارات الخمس، ويتعشق تجانس الطحلب، ويعتقد بالبعد

أحيانا، يتعاطى نافلـة التحدي كحكيم أصقاع السند، يمج

مصنّفات اللجوء، ويفتعله التغني بقصائد التأبين المسبق،

على جوانحه مرات ـ يا مولاتي ـ يرتع عزم رطب، يتعامل

مع مستشار الخليفة سرا، ويحرّضه تارة، ويعارض بإسم

شيخ العرب مرات، تتأوب بمراكبه الأسفار فينزع نحو التخوم،

ويحتفي علماء الأنساب بإجازته، يترنـح في غير كلفة خلف

كأسه، ويجتذبه الصمت الفضّي كالأخرين تماما

ـ صاحبـه أخطر منـه إذن؟!

ـ أرهق تماديه زميلتي.

ـ ربما لأنها سمراء، لقد أخذتُ هذا على قيّم الرقيق،

لا يُطعم الضيف من زاده يا فتاتي.

أشارت عليها بالانصراف، فقالت الجرمانية شبه متحفظة:

ـ إذا سمحت مولاتي مكنته من بعض وقتي.

ـ قد يصدر تكليف بهذا يا جارية.

وتريثت الجارية وهي تقول:

ـ أبلغني أن شارلمان قد راسل القيروان ليلا يا مولاتي.

ـ شارلمان؟ لا يمكن.

ـ صارحني بذلك حين اختفت أنامله عبر ثنايا شعري في لحظة انتشاء.

واعتدلت إيرينا:

ـ أكملي يا جارية.

ـ ليلتها كان نحوي أكيد الميل.

ـ حسن حسن.

في هذه اللحظة، كان شيخ العرب يُثني على فصاحة أحد محدثيه بالآشورية، وأخذ يستمطر فضلات سحاب راكض، ينشد فاكهة في غير أوانها من جديد، يخضّب عارضيه الأشيبين، وطمعا في الإنجاب يعتصر أثداء سادرة، محدّثه الضرير قال له:

ـ ألم تستهوك لعبة رسمية أيام "موسى الهادي"؟

ـ كلا.

ـ نادمتَ أحايين الإئتلاف البرمكي إذن؟

ـ ولا هذه.

ـ أغضبتَ الخيزران ذات مرة؟

ـ لا،لا يا صديقي.

ـ وفيم هجرتك إذن أيها الوقور؟

ـ لم أهاجر إلى بزنطة بعد تشكُّلها، لقد وفد عليها كبير أجدادي ضمن رحلة"بيزاس"،
نزولا عند استكشاف العراف "دافاس" يا ولدي.

جانبا، تنحى شيخ العرب وأشار بيده غير المشلولة:

ـ أنظر، فوق تل مثلث الجزيرة، أقاموا قصر "بيزاس"، يومها تعشقوا الاستحمام
ليلا في بحر مرمرة، فسكنني هوس الذات من بعيد.

عبر أمواج البوسفور أبحر نظره، مثقلا بطعنات غالبا ما ينسبها إلى حدث تقضى، كل ليلة كان يحدّث مستمعيه عن ميدان الخيل ببزنطة، والنصب الفرعوني المُبحر في أزمن الغلبة، ومنصة" سابتيموس" وآثار المبارزة. في صمت قال:

ـ "أيا صوفيا" للمرة الثالثة جددت شبابها،
وعلى مرأى من كبير أجدادي التهمتها النيران.

وحين انفرد بالجلوس قريبا من هضبة القرن الذهبي، ليخصها بنظرات حيرى على دأبه، فاجأه رسول الرشيد حاسر الرأس وقد ترجّل، قال له:

ـ اِجلسْ حدّثني عن الحماية، ورافع بن ليث، والأربعين جارية، ورسول سجلماسة.

في لحظة سهوم نافذ تسبل إيرينا جفونها، تسترقها الذاكرة، تستحضر انقلابا أبيض حاوله ابنها قسطنطين السادس، حين اخترق علامات الأمومة في غضب، ويداه على قبضتي سيفه، صاح فيها:

ـ لن تستمر امرأة على عرش بزنطة العظيمة.

ـ حتى ولو كانت والدتك إيرينا الفاضلة؟!

ـ أليون الرابع والدي رفض الوصاية لك، وبزنطة
ترفض أن تسوسها امرأة منذ عهد قسطنطين الأول.

أه. إيرينا أنت الأخرى رثاك الشاعر الضرير قبل وفاتك، لكم تطوّح بك الريعان، وأذهلتك التوابيت المسجاة في أماسي الفزع الأكبر، ولكم تلوّن قلبك خلف وسامة أليون الرابع، إلى أن استبدلك بالشاطيء الغربي، لقد أماتت صيحات الرشيد بقايا مترسب الآهات في أعماقك، ومرآتك الصغيرة تزف إليك كل صباح، أنك لم تصيري فاتنة الشرق، ما أصعب أن تُنتزع منا صفة الشباب.

هل أخطأت في اقترانك بالعرش؟ هل كان عليك أن تأبّدي جمالك بعيدا عن رحى الكرسي؟ هل بدورك لعنته على طريقتك، دون أن تبلغك وصايا جابر؟ أم تراك خشيت أن يغفلك فهرس التاريخ؟ وتنهدت ربما بصدق هذه المرة لتتساءلي:

التـاريـخ؟!

بدوره متاجر إذن؟ لن يعطي إلا بقدر ما يبتز، نار فارسية هو يا إيرينا، لا تحرق إلا من دنا من لهبهـا، ولعبة البقاء أفقدت الرشيد أخاه الهادي، واختلست منك ابنك قسطنطين، ومن " أروى" استرقت وحيدهـا ميمون، والبقاء مغامرة، رهان مفتوح دائما وبالمطلقية.

أشرت على وزير الحرب بالانصراف، ونسيت رسول سجلماسة إلى أن ردد اسمه الحاجب مرتين، فقلت له فور أن تجلى سواد لحيته الكثة من خلف الستار:

ـ غاضبة أنا من انصراف أميرك تلقاء الأدغال السوداء أيهـا الرســول.

ـ يحاول تجديد وجود تولّي يا مولاتـي.

ـ بل ليطال حملة جوستينيانس أيها الرسول.

ـ كانت فتحا تلاه فتح يا إمبراطورة الشرق.

ـ وسيتلو الفتحَ فتحٌ يا رسول سجلماسة.

ـ الرقيق يرفض أن يُباع يا سيدتي.

وضحكت قبل أن تشير عليه بالجلوس:

ـ وما عساه أن يصنع بنفسـه؟!

ـ يتشكّل من جديد يا سيدتي.

ـ لن يُحسن تشكيل نفسه إلا بوجود ما.

ـ يرفض أن يُصاهر من يشتريه يا سيدتي.

وعاودت ضحكتها بإستطالة:

ـ يرفض؟! الرفض من حق المتشكِّل وحده.

آسفا مكبوتا استظهرته:

ـ آه. لولا هذا الجدار المضروب من طبرستان إلى قرطبة؟

ـ لولاه لماذا يا سيدتي؟!

ـ لاقتفت بزنطة آثار جوستينيانس العظيم إلى حد " سيرينايك" و" بورنو"، لتظهر الخارطة من جديد.

وبإشارة منك جلس رسول سجلماسة، قلت له:

ـ وحال سجلماسة؟!

ـ يوغل مهمّشوها في انتظار ما يسمونه بالبَعد يا مولاتي.

ـ على شاكلة مهمّشي بغداد، وتهارت، والقيروان وقرطبة؟

ـ وما البَعد أيها السفير؟!

ومسحت على خدك في لطف وهو يقول:

ـ قال الأمير مدرار: البَعد كالشباب لا يعود مرتين،

وأعتقد أن الأمم في هذه القاعدة لا تختلف.

وعن ذي قبل تثاقلت كلماتك، ونبراتك تتجاوز سحنة السجلماسي، الذي ظل ينتظر أن تنفجر بؤرة ما في أحاديث " إيرينا"، هل تدعينه لمجرد التحذير من السباحة في رمال الجنوب الساخنة؟!

وأمام ارتيابه، تهاوى حين قلت له مؤذنة بانصرافه:

ـ لا تتسرع بالرحيل قد نلتقي.

هو خاطر شارد ذلك الذي عنّ لك، فأسرع كبير مخبريك لتسأليه:

ـ هل يلتقي هؤلاء الرسل؟

ـ من تعني مولاتي؟

ـ أعني رسل بغداد، وسجلماسة، وفاس، وشاعر قرطبة.

ـ المبادرة باللقاء عند كل واحد منهم تنازل يا مولاتي.

ـ ولكن قد يجمعهم الشعر ذات ليلة.

قالتها وهي تقهقه، وكأنها اطمأنت إلى رأي المُخبر، وابتسم:

ـ بدوره تحزّب الشعر عندهم يا مولاتي.

ـ صدقت، لن يسمح الحَكم بن هشام الأموي لرسوله بملاقاة الفضل بن الربيع.

ـ ولا الرشيد بملاقاة السجلماسي، أو الفاسي يا مولاتي.

ـ شارلمان قال لي" لقد نابوا عنا في تمزيق ما بينهم.

وسكتت.

ـ صدق الأمبراطور الأكبر يا مولاتي، صدق.

وزجرته إيرينا بعنف:

ـ أبلغتني الجرمانية، أن السجلماسي والفاسي والقرطبي، تجمعهم سهرات أنس؟!

ـ إنما يجمعهم الأنس، وعداء الرشيد.

وبقناعة علقت إيرينا، فبعثت في نفس المُخبر انتشاء حقيقيا:

ـ على كل حال لقاء "نيقية" الثاني لم يسند إلى بزنطة سوى أمر بغداد وسمرقند، أما تهارت والقيروان، وفاس وسجلماسة وقرطبة، فوكيل أمرها جلالة الملك الأكبر "شارلمان"، وهو قد استهل فعلا مهمته الصعبة بمغازلة القيروان في تحفظ يحسنه.

خلف الحصن المنيع تتسمعين نداءات متشرذمة، لغطا مشتدّا، وصهيل خيل، وتوقعت أن قسطنطين السادس قد فعلها! لكم استبعدتِ تمرده، وجاراك وزير الحرب في الاستحالة، ومن مقامك قمت في تحفظ، نحو النافذة المفتوحة على الأفق المغشي.

ـ نرفض الحماية، نرفض الحماية.

ـ أبعدوا رسول الرشيد.

إيرينـــــا؟

أنت الأخرى لم تحذري من أسرعوا بمبايعتك، لم تحاولي ملامسة مقاسات الولاء السطحي، مرحلية كنت كالأخرين إذن، وقلت في تجاهل:

ـ أوقفوا هذا الـ "ديموستين" الجديد يا وزير الحرب.

ونبر إلى جانبك:

ـ إنه يثور من داخل الدين، كحمزة الخارجي في خراسان.

وقال المُخبر ناصحا:

ـ قد نثير من معه يا مولاتي؟!

وتضاحكت دون أن تجلسي، لسانك كان محتدا بدون توكيل كاف، فآراؤه الجريئة لا تزال تسري كفيضان باطني في أعماقك المحايدة، وكأنها رسائل عشق تلامس قلبا فتيا بأحرف أولى، تمنيت لوتتعرين لحظة من رسمياتك، لتبادليه هيامه بالمجهول، هل كان قانتا في بكائه؟ أم ظل يركبه التحدي فقط؟! كبرياؤه كان يستلُّ إشفاقك، هو ذا كل ما تدرينه في لحظات كتلك.

ـ مولاتي من يحكم بزنطة؟!

ـ لا أدري لعلنا جميعا أو لا أحد لا أدري

يا تيودورس صدقني.

ودُق باب الغرفة السوداء فأسرعت إلى مسح دموعك منصرفة، بك أسرعت خطاك حتى لا تتسمعي آخر الأحكام، خيالك أبدا يضاجع جثمان الراحل، ومُحاكمه في نظرك أخذ يستجمع صفة جلاد.

قبل أن تسألي المُخبر عن الوفود المتبقية بجناح الانتظار، أخذت ترددين مقطوعة، يبدو أنك أصبحت وصية على إنشادها، بعد أن رحل تيودورس:

"وأخيرا جاء عصر الحديد فانبثق من فوره خسيسا دنيّا كلّه سوء،

فلاذت بالفرار صفات الحياء والحق والإخلاص.

وحلّ محلها الكيد والخداع،

والعنف وشهوة الكسب المجرمة"(3)

---

(3) مقطع من قصيدة "تغييرات" للشاعر اللاتيني "أوفيد".

أمسيتك هذه ملونة بعصير قان، فاصلا ارتسمت بين وبين، خيالك يلاحق أنفاس "شيشرون" ساعة احتضاره، لا شك أن صمتا كالذي يلف بزنطة شيعه، وعزعليك أن يعتقد الجمع الذي قاده تيودورس، أن قتيل غرفة الظلام كان مارقا، ما أقسى أن تشهر الأصابع نحو من يُعلّمها أن تمتد،

والتفت إلى المُخبر كما لو أنك تعاودين استئناف الزمن الراتب:

ـ وشاعر قرطبـة؟!

ـ دليل رحلته مزّق أوراق السفر على نهدي جارية، وانتحر يا سيدتي.

ـ أسألك عن الشاعر الذي زار عاصمة النورمان؟

ـ ((استعجله الخليفة، فعدد نواقص السفرة لتطول، وأشّر على غرفته النادل، ودمرت عيناه متصابيات الشعور الراقصة على المناكب العارية، لأنها ترفض التثنّي في أنهج بزنطة العتيقة، ارتشف الأطياف العابرة، فوضع مجلده الثامن عشر الذي سماه" أوصاف الوصائف وأطياف الظرائف.

أمام المارة يتظاهر يوميا بأنه يكابد مهمته الصعبة، ينام بعض أطراف الليل، ومع بداية كل انقشاع يمتهن النزول تلقاء عنوان ما، فتلفّه فوانيس الزوايا الشحيحة)).

ـ ولكنه زار عاصمة النورمـان؟!

وفي هدوء قالت، وهي تذكر تيودورس القتيل:

ـ وماذا تريد قرطبة من بزنطة؟!

ـ أن ترفض الحماية العباسية، أن تُسند ظهر سمرقند.

وفي اللحظة تلك مزّق شيخ العرب أوراق لجوئه، تفرّس في نظرات رسول الخليفة من بعيد، كان ينشد ثأرا موجعا، وتحفّظ على نشر البيان في مذكراته الخاصة، فنعته الرسول بالردة، قبل أن يدلج موكبه مثقلا بالعطاءات المعنونة، كان يخب عبر حقول الظلام، وإلى حيث يتجه كانت تنعقد قمة للنبلاء، لتخريـج اعتقال رأس المالكية الذي قاطع الإفتاء في مشروعية الخلافة.

الرسول رعاه شغور نصف المقاعد في مجلس الرشيد، فسأله بعد أن قبل الأرض، ولكنه أعرض فعاود تقبيل الأرض، وسأله الرشيد بدوره عن تصابي شيخ العرب المسكون بالحماية، وقهقها معا فانفتل "الموصلي" عن العزف دون أن يقذف بالكمان كما توقعا.

وبين يدي الخليفة، أنشده الرسول قصيدته في إيرينا، فخرق الأرض طربا، ودعا بالسماط قبل موعد الإفطار.

وحين أنهى المبعوث السجلماسي إلى "تقية" تفاصيل رحلته عبر بزنطة، أدى التحية وانصرف.

كان الحبشي قد عدل خلسة عن طريق غانا، وراكضا خلف المغيب السادس رآه شهود عيان قبيل صدور الأمر بإغلاق الميناء، يصطحب صغار سمك في رحلة خريف عكسية، وعلى شاطيء المضيق أسرته بارجة حربية تحمل صورة شارلمان، وطلب أمير فاس رأسه، فتلقى رؤوسا مبتورة اشتبه عليه أمر ولائها، قيل ساعتها إن الحبشي كان يهذي وتنبأ بحريق أرسّطو الثاني، وأصيب بإنشداه مزمن.

وقيل إنه أهدى أرامل الحرب الأهلية بعض زاده، وقيل إنه طلب حماية يحي بن يحي بعد أن صار مالكيا بحق، وقيل إنه حمل كُتبا محظورة وأغمي عليه وهو يردد اسم "أروى".

لـــوحـــة ثـالـثـــــة:

الفصل الثامن

"من آماسي الطرب والإفتاء والدعوة"

الفصل الثامن

"من آماسي الطرب والإفتاء والدعوة":

أوفد المدّاح إلى الأفق البعيد نفسا طويلا، مثقلا بالعياء والتذمر، فناوله "القصاب" كأسا من الشاي هي كل ما تبقى بالجهاز المستديم التسخين، وبدلا عن شفتيه أدنى المدّاح الكأس من عينيه وهو يقول:

ـ هيه. الشاي! من كان يعتقد أنه سيصير
يوما في عداد المفقودين كميمون الأول، ويأخذ
لون البَعد هو الآخر؟!

ـ عُد بنا إلى أروى.

نصح العجوز دون أن يضيف، وضحك المدّاح مازحا:

ـ انتظر، نحن في الطريق إليها.

ـ لا تتلكأ إذن.

ـ عشرة عشرة، لنصطحب الحبشي إلى
قرطبة يا سادة، هيا قبل أن نفقد آثاره.

ـ خذ، ولن نرحل إلا تلقاء سجلماسة.

ـ لا توجد قافلة قد نصطحبها أيها الأصلع العنيد.

ـ ننضم إلى ركب رسول "تقية" إذن؟

ـ قرر أن يزور البقاع المقدسة خلال عامه هذا أيها العجوز،
ثم إنه عاد إلى بلاده، ألم تكن تتابع تفاصيل رحلته معنا؟

وبالفعل أبدى المدّاح حيرته، في حين ظل العجوز، والأصلع والشاب ذو المحفظة الجلدية، يشاركونه اضطرابه، وكما لو أنه اهتدى إلى ما يُرضي قال:

ـ حسن، ربما عدنا بطريق البحر إلى "سطيف"، حيث تتجمّع
حشود عبد الله الشيعي.

وقام العجوز شبه مكره:

ـ وماذا عسانا أن نصنع في "سطيف" أيها المدّاح،
وقوات الحجاني تعسكر بها؟

ـ في طريقنا إلى سجلمسة طبعا.

وتساءل الشاب ذو المحفظة الجلدية:

ـ وتهارت؟ هل أسقطها دليل الرحلة تماما؟!

ـ لا تسبق سيلان المدح يا ولدي، لكل محطة زمانهـــا.

وحين حاول الأصلع أن يبدي اعتراضا، أسرع المدّاح بالقول:

ـ أراكم ترفضون زيارة قرطبة بإجماع، مع أنكم صيفا تتسابقون على الإبحار نحوها نحو، "إسبانيا"؟

وضحك العجوز وهو يقول:

ـ لقد أطلنا التسكع في أنحاء بزنطة، ونخشى أن نعيد المكوث بقرطبة أيها المدّاح.

ودنا الأصلع كما لو أنه يتأبط حسما للجدل:

ـ واصل رحلتك نحن معك.

ومسح المدّاح على رأس الأصلع وتضاحك:

ـ رغم تجهمك، يروق لي تسامحك أحيانا أيها العم.

تخلل لحيته المخضبة برؤوس أنامله، وتلاعبت يداه بالخيزران طواعية، وسابق صوته أنين القصبة.

كدأبها دائما فرّت قرطبة نحو ليلها من نهارها، في ضجر كل واحد من خليطها غير المتجانس طوال يومه، يتتبع حركة الشمس خارج تراتيب الزمن، يود لليل أن يزف قبل موعده، هو الليل في قرطبة كرنافال ثابت، دعوة مفتوحة للرجّة، للصمت، للهمس، للشرود، للشعر، للحناء، لظرفي الزواج، ولمحظور الجنس، ليلها يقطر بأخر صيحات النظم، تهمس بها أفتن القيان.

ثريات القصر يثقلها النسيم المشبع بتقاطع الأديان، وباحاتها المزدانة بالشمع واللوعة، يجلوها الأنس في بدايات الزجل وإضافات الألسن.

و"زرياب" يرفض أن يجالس الأمير، أن يُداني "طروب" لأسباب أمنية، وعلى القصاب أشار المدّاح:

ـ توقف. لنستمع سويا إلى تقاسيم زرياب، توقف.

في انشاده سكن الجميع، إلا سعلة قوية ندت من العجوز، وهز المدّاح رأسه مرددا:

ـ إنه في حالة عزف منفرد أنظروا، عبد الرحمن الثاني ذاته

يترنح! والنسيم يأخذ باستشارات الإيقاع، أنظروا.

والتقط ضارب الدف منديلا سقط من يده، ومن وراء جداريات الفائت المتراصة في غير انتظام، أنصت المدّاح، عيناه أبحرتا خلف مفاتن "طروب" وقد جلست نصف سافرة، توزع بسمات مرضاتها في إجحاف مكشوف، أدار المدّاح نظره مسرعا عبر الوجوه ذات اللحى القائلة في أغلبها بالاستطالة، ودنا من أحد الخدم ليسأله:

ـ لا يفتأ يشدني مقعد شاغر إلى جانب "نصر"؟!

ـ تعني مقعد الفقيه يحي بن يحي؟

ـ هل اعتزل مجالس قرطبة؟

ـ أحيانا، متهم هو بتحريض فقهاء الانتفاضة الأولى.

وكان بعض أطفال حلقة المدّاح يتوقعون، مشاهدة الخدم ومجلس قرطبة فعلا، الأمر الذي دفع بأحدهم إلى القول:

ـ وأين زرياب يا سيدي؟

وتنهد المدّاح بدون مقدمات كافية للحزن، وخطى خطوات بالغة الاتساع باتجاه زاوية الحلقة، وبعيدا من الطفل الذي سأل، احتفظ بمكان يدرك الجميع أنه مكان مؤقت:

زريـــاب.

خلاصة النغم المهاجر خلف البحر، والهجرة مرادف النبوغ، تكملة التبريز، زرياب، تقاطع فني في منحنى خلاف مرير، كأروى، لعبة أكثر من بلاط يا ولدي هو زرياب، إسحاق الموصلي قال له في إحدى حلقات نصائح الأستاذ الغريم:

ـ بعد المجد ماذا تنتظر؟!

من يومها أدرك زرياب أن الأنامل لا تُلهم العزف وحده، في خلوته بجسر بغداد قرأ الخريطة سرّا، وطوّف في أزمنة الذبح المعلن، وتلمس وعيد الحجّاج في نظرات الرشيد هذه المرة.

حين أسر إلى نفسه بالرحيل، تضورت أنهج بغداد، واستُنفر جيش مصر، وتلغمت حدود القيروان، وزرياب كالفاطمي تماما، تشممه حرس الحدود العشائري، وشك المحتسب في حمولاته، وبحث محلفون أمميون نوتات موسيقاه وأصل سيوفه.

زريـــاب.

قال بالنبوغ وحده طريقا للفوز، وأغفل علامات المرور، فكانت الهجرة، وكانت طروب، وكان يحي بن يحي، وأشياء للذاكرة.

في مطار قرطبة أربكه الحرس، إلى أن عزف مقطوعة ولاء مفتعلة لأمير ما، قبل أن يحدد لون الوصاية التي سينعم بها، من يومها صار يحسن الإفتاء في مناسك النغم.

وأثناء الرقص الليلي، ظل زرياب يعزف دون أن يتبدى له "يولوجيوس" المغالي، وقد تنكر في ثياب جارية شقراء، وقائد أسطول " ألفونسو" يتظاهر بإطالة الصلاة جانبا.

ساعتها كان مؤرخ قرطبة الأوحد، يجادل وفدا كوفيا في خاتمة موسى بن نصير، قال له الفقيه الكوفي الذي هاجر في مهمة غير عباسية:

ـ رحيله كان متأرجحا بين رسولين.

ـ وكيـف؟

ـ رسول الخليفة الوليد بن عبد الملك يستعجله، لينعم
بنفائس الأندلس في ساعات الاحتضار، ورسول أخيه
سليمان ولي العهد يرجيء وصوله إلى غاية وفاة أخيه
الوليـــد.

وتنهد مؤرخ قرطبة:

ـ ولكن كيف لي أن أطبع هذا في قرطبة الأموية؟

ـ أنسبه إلى مؤرخي بغداد من المعارضين، ليتأتى لك ذكره.

ـ وعبد الرحمن الثاني؟

ـ لا تحدثـه بهـذا.

ـ والتاريـخ؟

ـ أرثِـه في المقدمة فقـط.

في احتجاجه، هل كان مؤرخ قرطبة صادقا؟ أم أنه دفع بالكوفي إلى الأخذ بظاهر ما قال، قبل أن ينصرف قـال لـه:

ـ لن تفتقدك عيون قرطبة إذن.

ـ عيونهـا؟

ـ أجـل.

ـ من الكوفة إلى قرطبة، أما من إقليم لا عين فيه يا أخي؟

وتضاحـك المؤرخ:

ـ كلا كلا لا أقليم أعمى يا صديقي.

طلب يحي بن يحي دمسا وخبزا وفاكهة، واختلى إلى زاوية تقوم مقام الديوان بمنزله، مسح على لحيته المستطيل شعرها، وأبحرت به خواطره، زورق الإمارة في نظره أكيد الاضطراب، يتجاذبه الافتتان بالعملة الثقيلة، ودفء الرموش، والموسيقى المغتربة، عملة " نصر" اليهودي الذي يقضي مواسم الخراج في "تيماء"، ودفء "طروب" التي تخثّر عينيها زرقة العلجات، وغرابية الحضرميات، وموسيقى زرياب وقد دمرت وصلاته مقامات إسحاق الموصلي.

يحي بن يحي لم يشرع بعد في تناول الدبس والخبز والفاكهة، تنفسه كان يضيق أحيانا عن اللحاق بحجم السؤال، والسؤال لا يتعملق إلا حين يطال الخارطة، ساعتها يتعرى الجرح خلف الضماد.

في عهد الحكم الأول، انضم يحي إلى انتفاضة الفقهاء، ولاحق أنفاس الليل، وشّهر بزيارات "نصر" اليهودي ليلا إلى قصر "لوذ ريق" ، وأرعدت أميراتِ أنهج الشمع صيحاتُه.

وقرر الرحيل إلى بلاط الشهداء للاعتكاف، ودون أن يلتقي أحدا، ظل يناجي عبد الرحمن الغافقي في أمر الهزيمة، وباغتته دعوات تتهم الغافقي بعصيان أمر الخليفة، القاضي بوقف الفتوحات، و حق ضحايا قتلى بلاط الشهداء في التعويض من ماله الخاص.

إلى أسماع يحي ترامى تعصب عبد الرحمن الثاني للمذهب المالكي، و في إحدى خطبه قال:

ـ لتأخذ قرطبة بقول هشام الأول.

وجدّد القول برفض مذهبين.

ويحي بالصفوف الخلفية يومها، لم يهنئ نفسه بالعودة، كان كأروى يخاف القَبل، وبالجزيرة التوأم نادى به الأمير حجة، وأسر إليه "نصر":

ـ الأمير لا يحرس على مالكيتك إلا مطاولة

لحنفية بغداد والقيروان، ولإباضية تهارت،

وصفرية سجلماسة.

وأكمل يحي:

ـ ولواصلية فاس، وشيعة من؟!

يحي؟ هل كان عليك أن تنازل هدايا نصر اليهودي؟ ونقيق زرياب؟ ودلال طروب؟ منذ أن أدركت هذه الحقيقة صرت في عداد مذهب، لما يتشكّل بالقدر الكافي في قرطبة البلاط، لكم كان عليك لولا أن "لنصر" مريديه من بين مُصلّيك، و"لزرياب" تلامذته في كُتابك، و"لطروب" عشيقاتها من ضمن أزواجك الثلاث.

والأمير عبد الرحمن الثاني لا يذكرك في عامه، إلا لحاجة الإفتاء:

ـ أيكم يؤخذ بوجهته في قرطبة؟

يحي؟ هل أخذت تتقزم في نظر عبد الرحمن الثاني؟ هو ذا ما صرت تعتقده، ووحده ما يهمك، تطففت الدبس واقتضمت الفاكهة، هكذا أنت كلما بلغت نصيحتك طور الإفلاس، انتصب بخلدك أمر مسلمة بن عبد الملك، ومسلمة أشار بتمديد البَعد، وحين شارف البَعد آونة احتضاره كتم إيمانه به، كدأبك تماما ، عاش مخضرم الاعتقاد، وقاطعت حفل توزيع القلائد الذهبية على جواري البلاط، وقطبت ثانية، قرطبة تشكو فقرا في الجدل، وأنت تسمو عن منازلات مبسّطة كالتي تدعوك "طروب" إلى الأخذ بها، قريحتك الفقهية تحلق بعيدا في سماء تغشاها ألسنة متكلمي العقيدة، كالسجلماسي صار يبهرك "النّظّام"، و "البصري" و"جهم" وأخرون، رغم أنك لا تفتأ تردد:

ـ الكلام عندهم لا يلد إلا الكلام.

والتمح الأمير طيف انكفائك، فأوصاك بالعودة، و من يومها أيقنت أن الإفتاء كالتنظير، كلاهما لا يستنبت الخاطرات الخـام، وحين سألت الأمير عرضا عن مهاجري الأندلس، و أي الأمرين ألطف انمحاؤهم في الجوار أم عودتهم، شعرت أنك قاطعت انصرافه الكلي خلف اللحن، وقال لك ليؤجـل فضولك:

ـ اللجوء حق يمارس لاستئناف العودة دائما.

ـ ولكن الأدارسة يزيّنون لهم الانمحاء الأبدي في ما خلف البحر؟

ـ ليست بأولى جرائر "فاس" نحونـا.

ومنكما دنـا "نصر" ليقـول:

ـ سجلماسة هي الأخرى رحبت بطلائعهم الأولى يا مولاي.

وقال عبد الرحمن الثاني في تأكيد:

ـ بل أعلنت رغبتها في التشاور بشأنهم قبل موسم التمور.

وتنهد يحي وكأنه يحادث نفسه:

ـ يحزنني أن من بينهم من أبلى، في حروب سرقسطة ضد شارلمان لتحرير لشبونة.

وكما لو أنه نبش بركانا في خلد الأمير الذي قال:

ـ فاتخذ من ذلك مدعـاة للتطاول؟! وحقا للتعالي على الناس؟

طوال الحديث لم ينثن زرياب عن العزف، وكأنه يلطّف من غلواء الاضطراب التي تجتاح نفس الأمير، الذي أخذ يدعو بين الحين والحين، إلى مواصلة العزف بإشارة من مروحته الريشية، في هذه الأثناء تحولت "طروب" بجذعها الأعلى نحو الأمير، كما لو أنها بصدد الارتماء عليه وقالت:

ـ أشؤون حكم في مجلس طرب يا يحـي؟!

وتشبث يحي بالامتناع عن الإجابة، وهشّ في وجهها "نصر" في خبث تدركه، أما محمد بن سعيد الرستمي، فقد ظل يحتفظ بمجلس شبه مواز، تحيط به كوكبة غير مسلحة من الضباط، قد تعالى هرجهم بين الفينة والأخرى في قهقهات مشتركة، وصوبهم التفتت "طروب" وكأنها توجه لوما إلى شخص ما.

ـ حتى حاجب الأمير وقائد قواته اعتزل أمر الحكم، ليستمتع بالرقص والموسيقى.

وأكمل " نصر" ضاحكا:

ـ مع أنه من وسط زاهد.

وقالت " طروب" في تنهد:

ـ لا تذكرني بوسطه.

وشيّع عبد الرحمان الثاني حنقها بنظرات غير رائقة، وقال:

ـ لكأني لم أضع حدا للخوض في شأن كهذا من قبل؟!

وكما لو أنه استفزها أكثر حين قالت:

ـ أليس في جزيرتنا من يحسن قيادة السيوف غيره؟!

وبانفعال شديد أخرجه عن وقاره المعهود، قال الأمير:

ـ أوليس في تهارت من يحسن الشورى أفضل بكثير من مسعود الأندلسي؟ ومع ذلك عُيّن عضوا في أعلى مجلس للشورى، بل وكاد يستلم الإمارة مباشرة؟!

وانصرفت عيناها نحو " نصر" وهي تقول:

ـ شاسع هو الفرق بين التدبير ومجرد العفوية يا مولاي.

واشتدت مجامع صوته:

ـ ماذا تعنين؟!

ـ إنني أعني أنه كان للأمير المؤسس عبد الرحمن الداخل وجهة ما في دعم مسعود الأندلسي.

وصادقا تساءل:

ـ وجهـــة؟

ولاحقت تجهمه بسمة غير مستقرة:

ـ ولنفرض؟

وكأنها تكمل ما ابتدأه:

ـ ولنفرض أن لابن سعيد دعما ما.

ووقف الأمير يدفعه غيضـه:

ـ أرجوكِ إلا هذه، فعلاقتنا بتهارت نموذج يقتدى.

أربك انصرافه نظام السهرة، وآليا أجهض "زرياب" إيقاعه، وتعاظم حجم رغبة الأمير في الانفراد "بطروب" ، وسرعان ما باشرها بالسؤال فور بلوغه جناحها:

ـ ألم أحذرك من الخوض في مسألة ابن سعيد على مسمع من "نصر"؟

والتفتت في شرود:

ـ "نصر"؟! أكبر أثرياء قرطبة؟

ـ لا أعترض على أنه أكبر الأثرياء رغم أنه يهودي،

يُصدر تعاطفـه نحـو

ـ نحو من؟ أهو الشك الذي حذرتني مغبته؟

وحافظ على اتزانه واقفـا:

ـ ربما، غير أنني أدعوك إلى استقراء موقف تهارت، حين مرّ

بها عبد الرحمن الداخل فارّا من بطش بغداد، بالمقارنـة

مع موقف الحي اليهودي بجنوب قرطبة، في بدايات عهد

الإمـــارة.

ودنت منه في رقة تحسنهـا:

ـ أكره في ابن سعيد أن يؤازر حدّة يحي بن يحي،

رغم كونه شاعـرا مرهفـا.

ـ يحـي بن يحـي؟

ـ ذلك المُبتلي بهوس التضاد في كل شيء، أكره حدّته.

واتسعت عيناها في إغـراء:

ـ حدّتـه ضدي، وضد " نصر" وزريـاب.

ـ وفيـم؟!

وتراجعت، ثم قالت غير مقبلة عليه ببصرها:

ـ يعتقد أن ثلاثتنا ننفرد بتوجيه خطا مولاي.

وتمكن منه دلالها، فقال وكأنه ينهي هذه المناظرة:

ـ الكل ينحو إلى التعبير عن إخلاصه بطريقته.

ولوّحت بمنديل كان في يدهـا، وقال وقد دنا منها بدوره:

ـ إنني أنوي إيفاد محمد بن سعيد إلى سجلماسة.

ـ وفيـم؟

ـ في شأن اللاجئين الأندلسيين.

ـ ولكنك لم تفعل إزاء "فاس"؟

ـ فاس أمرها يختلف، فهي ليست قاعدة على طريق الذهب كسجلماسة، ورستمية ابن سعيد تمكنه من فعل شيء بسجلماسة، ثم لا تنسي عمة أبيـه "أروى".

ـ أروى؟ لقد زحزحتها الأحداث بعد عز.

ـ ليس إلى الدرجة التي تتصورين.

وفي حنق صفق بيديـه:

ـ لقد بلغت "فاس" من القوة، بحيث أمكنها أن ترفض استقبال وفودي يا طروب!

وكأنـها فوجئـت:

ـ هــل؟

وهز رأسه بعنف:

ـ أجل، لقد حدث هذا.

طروب اقتربت من النافذة، فأدركت أن قرطبة رفضت دعوة الأمير إلى النوم مبكرا، فواجهات القصر الذي يقيم به زرياب مثلا، تؤكد هذا الاحتمال بإعرابها عنه من خلال أضواء تأبي الخفوت، في قلب طروب تحرك شيء ما، كأنه الرغبة في الخروج، أو العزوف بالمرة عن التفكير، أو استحضار مشهد راقص، أو نجوى تيليباثي عاكس، في سرها، لعنت شؤون الحكم ألف مرة، واحتدت نقمتها على "يحي"، إذ لولاه لبات العود يغازل مواقع الشجن في نفسها ككل ليلة.

وأثناء الشرود الذي لفّها، تساءلت عن السر الذي يصنع بعض الطباع من جدية خام لا منبت فيها للمرح، وأخذت تستعرض قسمات "يحي" لأول مرة على ضوء خيالها، هذا الأشيب المتداعي ماذا يريد بالضبط؟!

لقد جاوزت قرطبة في نظر طروب، أطوار الاستكانة المسائية والغموض الحضاري، وطوال كل هذا تقوم صنائع عبد الرحمن الأول، وهشام والحَكم، شفيعا للجزيرة في ما أصبحت عليه، من ليال تقف علامة مرور بين خلاصات الزهو في الوجود.

طروب لكل هذا تستعصي عن الإنصات إلى إشفاقات يحي بن يحي، الذي تنبو همومه عن خارطة الجزيرة لتفشي دعاوى الحذر في كل زوايا الأرض.

لكم كرهت فيه إشادته المستديمة بأروى وكنزة والدة إدريس الثاني أمير فاس، مع أن الأحرى بهما أن تتخذا خلوات للزهد خارج البلاطين، فوق ذلك، رفض قهقهات قرطبة إزاء دموع بغداد يوم أن تعجّم السند واشتط حالما، ارتدت بغداد حدادها أمام هزيمة "رولان" قائد جيوش شارلمان في أعنف حملاته على الأندلس، ورغم كل هذا، يريد لطروب ألا تهتم بانفصام الولاء وانشطار الرؤيا.

عبد الرحمن الأوسط ذاته، شك في ولاء "يحي"، حين اشترط إدريس الثاني تنازل قرطبة عن الشريط الساحلي، مقابل السماح للاجئين بالعودة، إذ قال يحي ناصحا:

ـ كلما تعلق الأمر بالضاحية الجنوبية من البحر، جنحنا

إلى تهذيب لهجتنا.

ـ لكأنك تتناسى أطماع فاس؟!

والتفتت طروب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط وقالت:

ـ أبلغني أحد عيوني أن " يحي" أخذ يطيل انفراده بالرحالة الكوفي، ليخوضا في أحاديث غير مأذونة.

وتنهد كما لوأنه مرغم على الحديث:

ـ قد تشكّل حقائق بالنسبة لهما.

ـ لعله "بَعد" أروى؟

ـ قد يتراءى لهما كما لو أنه أم الحقائق.

ـ الماثل "بَعد" بدوره يا مولاي؟

ـ وهم لا يرونه إلا بديلا متطفلا، مؤقتا.

اِرتدت طروب منامتها البنجابية، وفي هذه الأثناء، كان الرحالة الكوفي يسامر يحي، وقد تزويا بمجلس خفي، ومع الصباح وقبل أن تستقر بجناحها، أرسلت طروب في طلب "نصر" الذي ابتدرته فور دخوله شبه غاضبة:

ـ ماذا دبرت حتى الآن؟

وبحركة شبه وثنية قبع عند قدميها الممدودتين في عناد:

ـ بشأن ماذا يا مولاتي أثيرة قرطبة؟

وانصرفت عيناها عن النظر إليه:

ـ بشأن ولي العهد، محمد الأول كما يسميه الأمير.

وزفر " نصر" وقد زاغت عيناه الضيقتان في شكل مخيف:

ـ إبعاده رهين بأمر الأمير عبد الرحمن.

و في عصبية قذفت بمئزر مرصع كان بجوارها:

ـ ماذا تعني؟

وتلاعبت عيناه كما لو أنهما تستعصيان عن النظر إلى جه الأميرة:

ـ هل أعرض خطتي آمنـا يا مولاتـي؟

بسخرية يعرفها مسبقا:

ـ وتخشى ماذا يا " نصر اليهودي"؟

ـ إبعاد ولي العهد رهين باغتيال الأمير عبد الرحمن الأوسط.

وتراجع حماسها، وهي تردد كلماته في تثاقل لا يخلو من جرس:

ـ ولي العهد وعبد الرحمن الأوسط؟ طعنتان في صدر واحد؟!

ولأول مرة خافها "نصر" فارتبك، ولكنه سرعان ما اطمأن حين اتسعت عيناها، والتفتت صوب زاوية الجناح في حذر، قالت:

ـ وأنصار عبد الرحمن أيها اليهودي؟!

ـ قصارى ولائهم له أربعون ليلة، هو ذا دأب الناس يا مولاتي.

وأردف قبل أن تأخذ منه الحديث:

ـ لقد خشيت أن تطرح مولاتي أمر تعلقها به، ما أغباني.

وقالت في جد صادق:

ـ ولكن الرجل فاضل في نظر الجميع يا "نصر"،

وذا مآثر منها طرد النورمان.

ـ لن يغفلوا ذلك في خطبة تأبينه، تأكدي.

وليقنعها أكثر أضاف:

ـ فعاليات كثيرة في قرطبة تنعته بالضعف والتخاذل.

ـ أمـام مـاذا؟

ولاحقته عيناها المخضرمتا اللون، وقد اتجه بصره صوب الباب:

ـ يرون أن نفوذ قرطبة جدير بامتصاص ذاتيات " فاس "
و" سجلماسة " و" تهارت " على الأقل، ناهيك
عن عجزه أمام الحرب الأهلية بين المضرية واليمانية،
وتأرجحات " موسى بن موسى"

وقالت طروب:

ـ أه. لو وجدت قرطبة أميرا طموحا كهشام
ابن عبد الملك.

وأسرع بالقول وكأنه يحافظ على ما بلغه ميزاج الأميرة من طواعية:

ـ هو ذا، هو ذا ما أعنيه يا أثيرة قرطبة، إنني لأكيد الثقة
أن مستقبل قرطبة سوف لن يخدمه مجرد الاطمئنان
إلى تطاحن تقليدي، بين علوي فاس وعباسي بغداد، ولا بين
هؤلاء وصفري سجلماسة، أو إباضي تهارت.
صحيح أن وجود هذه الفكرويات المتناقضة، يحدّ من
هجومات القيروان على قرطبة، ولكن ما جدوى إبقائها
خارج الخارطتين؟

ورمقته طروب وعمدا أغفلت إحدى خصلات شعرها المُحنّى، تنسدل على نصف وجهها:

ـ صدقت، إنها لا تعدو كونها ولايات، ترشحها
طبيعتها لتبعيتنا يا نصر.

ومسرعا وقف لوقوفها، غير أنها لم تخط إلى الأمام كما توقع:

ـ ولكن كيف يتم اغتيال ولي العهد محمد يا "نصر"؟

وأبرقت عيناه الدقيقتا البؤبؤين، فبدا أكثر دمامة مما كان عليه:

ـ هو ذا السؤال الذي نحسن الإجابة عنه وراثيا
يا سيدتـــي.

وهي لا تفتأ واقفة، وخصلة شعرها متدلاة:

ـ قد يُتّهم يهود قرطبة بتدبير المؤامرة انتقاما لهزيمتهم؟!

ـ رغاء المؤرخين لا يشدنا، فهم كالأطفال لا يتفقون على شيء، ولن نعدم من بينهم أنصارا صدّقيني يا مولاتي.

وضحكت طروب وهي تكمل ما تبقى من عصير، في الكوب الذي يليها، وصفق نصر بيديه فولج الباب أحد أتباعه، يحمل صندوقا مذّهب الحواشي، وفوجئت طروب فتساءلت في وجل:

ـ ما هذا الذي يتأبطه طبيب القصر؟!

تضاحك نصر مديما النظر إلى الطبيب:

ـ الدواء، دواء ولي العهد.

اغتصبت ريقها:

ـ السم؟!! على طريقة سليمان بن حريز الشماخ مع إدريس الأول أمير الأدارسة؟

ـ لقد انتحل صفة الطبيب، ومع ذلك نجح تدبيره.

ـ وطبيبنا عكسه، إخصائي محنّك.

وانحنى طبيب القصر قبل أن يضع الصندوق وقال "نصر":

ـ ولكن المريض لا يشكو من آلام أسنانه كإدريس؟!

وتدخل الطبيب:

ـ لا فرق، لا فرق يا سيدي:

سأل نصر:

ـ والقهرمانة لقد بقي أمرها؟

وقالت طروب:

ـ القهرمانة ؟! وماذا ستصنع بها؟!

ـ تقاليد اليهود ترفض الخوض في أمر قبل تحقيقه يا مولاتي.

وقبل أن تأذن للطبيب بالجلوس أو الانصراف باغتها شعور مغاير، فتملّك حماسها من خلال سهوم ثقيل، داعب جفونها المفتوحة في انشاده، الشعور المعاكس أخذ يتلاشى أمام حدة الرغبة، يكفي أنها ليست أولى من أسقطن أميرا وأقمن آخر، وشخصيتها ليست من الحياد بحيث تصبح باهتة، الحياد الذي قالت به أروى و كنزة أميرة فاس، إنها حفيدة جدات أتقنّ لعبة البلاط، وقالت لنصر وكأنها تغالب شعورها المفاجيء الدخيل:

ـ إذن سنختزل المسافة بين عبد الله ابني وعرش قرطبة؟

وهز رأسه:

ـ هو ذاك هو ذاك يا سيدتي، وبأسرع ما يكون،
ومقابل حظوة للأقلية اليهودية كما اتفقنا.

ـ ومحمد بن سعيد ويحي بن يحي؟

ـ بعد اغتيال الأمير، وولي عهده لا يحتاج أمرهما
إلى مؤامرة، مع أن رحلة محمد بن سعيد إلى سجلماسة
ستتم، كما أراد لها الأمير عبد الرحمن الأوسط.

وتلاعبت نظراتها في حيرة:

ـ تقول أنها ستتم؟

ـ لكيلا نحدث بين عهد الأمير عبد الرحمن والأمير
عبد الله ابنك قبلا وبَعدا، يخوض فيهما المناظرون،
أو نُتهم بالتنازل عن حق اللاجئين في العودة.

("") ("") ("")

وتدنى الشاب ذو المحفظة الجلدية من المدّاح ليقول له:

ـ وهل أُغتيل ولي العهد، وعبد الرحمن الأوسط معا؟!

ورمقه المدّاح بنظرة خاطفة:

ـ فشلت مؤامرة "نصر" أمام ولاء الطبيب لسيّده.

لـــــوحـــــة رابـــــعـــــة

الفصل التاسع

الرحيل إلى أروى:

الفصل التاسع

الرحيـل إلـى أروى:

لجّ المدّاح في إعفائه من المدح بدون طائل، الأصلع كان وراء تحريض الجمع، والعجوز لما يغادر مربضه كما لو أنه قرر المبيت، والتلميذ لا تفتأ عيناه تركزان النظر على المدّاح في رغبة غير خجولة، أما الطالب ذو المحفظة الجلدية الناعمة، فكان يبدو مشدودا إلى أروى أكثر من غيرها، وأدرك المدّاح أن ملاحقة حديث أروى كان ينشد حديثا ما عنها، ودنا صاحب المحفظة مستغلا صمت المدّاح المفاجئ ليقول:

ـ حدّثنا عن الجانب الأخر في أروى.

وتبسم المدّاح في تسامح غير معهود فيه، وبادل قصابه النظر، ثم اقترب من الطالب وقال:

ـ تعجبني فطنتك.

وقال العجوز دون أن ينتظر انتهاء المدّاح من كلماته تلك:

ـ عد بنا إلى أروى، مالنا وطروب هذه؟

ـ طروب جزء من أروى يا سيدي.

ـ احتفظ بقصتها لنفسك.

إلى هنا نبر الدف منفردا وكأن القصبة ترفض أن تلاحقه، وأشعل القصاب سجارة مما أوحى بانتظار طويل، إلا أن المدّاح أقلع بصوته غير الإيقاعي خلف الدف على غير عادة منه.

اهتدت أروى إلى أخر منحنيات الجناح، فسرقها نعاس غير مأذون، ومسحت السكرتيرة "نداء القلوب" من مآقي أروى دمعة حيرى، وسألتها:

ـ سيدتي فيم أسر أبو القاسم؟

ـ في كلمة الحسين يا آنسة.

وتنهدت أروى وهي تذكر كلمات "بامبارا" /يوم فراقهما الأخير، وصاياه كانت شبيهة بحكم عرّافي الحقب البعيدة، قال ويداه مشدودتان إلى صدره:

اِبكيني يا سيدتي في سنوات الصخرة
وليالي الاســـتـــواء الـــــموحـش
أبلغي واشمة الحي أن تزين معصم الطفل الهزيل بآثار
أنيابي، ورضاب قرطاسي المحظور
قاطعي سهرات أنسك بذكر "جابر" كما تفعلين
ومرّري أشباحي على أعـيـن الأيـامى العزل
وإذا عثرت على طلل المخيم، تمتمي ببعض متبقياتي.

وفي إشفاق عليه ضحكت:

ـ لتسألني "بثينة" عن أخر القمصان؟!

وقبل أن يمهلك أردف:

أنشديني في فرحة اللقـاء البكر
اختلسي من تراب خطاي حفنة، لأعود إلى رحل خيمة لا ملح فيها.
من تمرك المُحوِل أطعميني، واِسقني من جلد نمر الأدغال الكلسية.
اِقرئي عليّ برج التوأمين، وناديني مذ اليوم:" بامبارا فقط".

وحين كاشفتِه بشاعرية ألفاظه قال لك:

ـ ليُوحَى إلينا، يجب أن نُسجن.

زوري سجن الصخرة، اِقرئي من أجل المُعلّم في أحايين الانفجار المؤقت.

كبير قواده تراجع أمام زمجرات الأرملة المطفل:

ـ وولـــدي؟!

ـ فيم تسرحين؟!

سألك عريف الحرس الليلي:

ـ في الذي تنبأت به كتب الأمس، ومحطات البريد المختنق،
في الذي اِغتال "خولة" بمدينة التّماس الملتهب أصيلا،
في جلبة المُخيم المحتضر قبيل صلاة الفجر الثامن، فـي

توقيع بني سليم أيام الغارة على مسجـــد
"الفهري، في عويل الأطفال الرضع بضاحيـة
برشلونـــة أمام سيوف ألفونس الثانـي.

ـ أتجهشين على أمواج الأثير؟

سألت نفسك في صدق، ومن داخل الجدار سألك الحارس الليلي:

ـ هل تحبينـه؟

ـ من تعنـي؟!

ـ بامبـارا

وتلمظت في غير اعتداد، وتساءلت عن لون "بامبارا " في إقامته الجديدة، فحلّق بك الصمت. بامبارا أُبعد إلى سجن الضواحي بإشارة ليلية، واستشعرت فُرقته وبكيته بالجناح، كما تبكي أباك وأخاك وابنك، والبكاء عندك مذهبان، تفضلين المكبوت منهما، لأنه يستحضر أشياء تفوق أحجام الصارخ، رفاق البارحة تبكينهم أيضا، بعمق تتفهمين بامبارا، وتحذرين تباين الرؤى في نهاياتها الموغلة في اللاّمرئي، بامبارا كان صنيعة حكيم تجريدي يحسن فنون القول والعزف، ويرسم مومياء الفائت، أما هي، أما "أروى"، فكانت خلاصة تحفز نحو البَعد، تتوسط أشواط المتشكّل، وتستند إلى وقائع من عثر على مفتاح المدينة، و ركب الإبحار، وألهمه البحر لغة الفعل.

وبامبارا، لا يكبر في روعك إلا بقدر إكباره للبَعد، وانتسابه للمدينة، وعاودك حائر سؤالك و قرنفلة تضع بين يديك، في احتشام، طبقا من الفاكهة:

ـ اقتنيتها من بستان القصر يا خالة.

ـ والحـارس يا قرنفلـة؟

ـ يحبني باسم مستعار، يدلج في أثر قلبي منذ سنين.

وهاجمك التفكير في "ميمون" فأسقطت الولاية ليعود على مسمع من قرنفلة والحارس، وطيور الحديقة أعلنتِ كأميرة ترفض التقاعد المسبق:

ـ أبلغوا "ابن المنتصر" أن ميمون سيتنازل عن حقه،

اِرفعوا عنه حذر العودة فقط، لا أريده أميرا مستبدا،

بل أريده حكيما كبامبارا، شيخ رؤيا كجابر فحسب فحسب.

وأيقنتِ أن ميمون سيرفض الحكمة لأنها نقيض الوجود، وتشممتِ غطاءه السندسي نصف ضارعة، والتقطت سقط صراخ في مقصلات الأنين المبستر، وفي ثوبك الطافيء الألوان أمعنت التحديق، وارتديت خمارك فأطلت الصلاة كدأبك:

ـ ربنا قنا عذاب القَبل وانغلاق البَعد.

اقتحم خلوتك محققان، تعرفين الذي ابتسم منهما، كان سابقا موظفا بحجرة زينتك، وقبل اختفاء ميمون أُلحق بسلك المحققين الجدد، يحسن فتاوى التحية، ويبكي إذا ما انغرزت حدقاتك الغاضبة أحيانا في هندامه تعتصر الصدار، بالوراثة يتعاطى الوشاية، مصباحا زيتيا أشعله، دنا منك ليسألك:

ـ اسمك؟ وسنك؟ ومسقط ناظريك؟

ـ تسألنـي من أنـــا؟!

تسألينه بدورك، وتلجين في صمت.

أروى. تسترجعين لعبة الإغماض في تهارت، حيث كانت حولك تتحلق صبايا الأنهج المزمنة اللهاث، و"ميناس" ينصت لجلبة الأطفال حين تغشاك، يلفعها ضباب الوادي، السادر في تثاؤب المغيب الدافيء، صبّية الحي يستهويها سؤالك، فتقرأ أصابعها الدقيقة، هوية جدائلك خلف المجاهل، وهي مغمضّة العينين، تداعب الوجنات في رحلة استكشاف تودينها.

بنات "ميناس" كلهن، يعرفن "أروى" كتأنيث يأتي فوق أسماء الجموع، تماما كما تعرفها بنات سجلماسة وفاس، والقيروان وقرطبة، الصوت يسابق هربذة الأنمل السابحة في التشكّل، وتحاصرك التحيـة:

ـ أقسـم أنك أروى.

تقول البنت المغمضّة العينين، وتطلب إليك إزالة العصابة عن ناظريها، وصراخ الفتيات يوقظ روافد "ميناس"، وترتسم إشراقات يتلمّظها الليل المولع بالألعاب، أثناء موسم قوافل الجنوب النازحة، حدسيّات التكهن تنطفئ، وفريق صباياك يذعن للرسوب، يلفّ العراك أطراف القماش.

ـ أنـا أغمض هذه المرة، أنا أغمض.

ـ لم أغمض إلا مرة واحـدة.

ـ أنـا التي حان دورهـا.

ـ بل أنا وإلا قاطعت اللعبـة.

ـ بل التي انتظرت طويلا إنما هي أنا.

للثأر تتحفزين، جريئات الصف الخصم يتهادين، الحلبة تنداح، يسبغها لون قتامة.

ـ تسألني من أنا أيها المحقق؟!

ـ أجـل ياسيـدتـي.

ويباغتك الصوت قبل أن يتلاشى في ظلام الأمس:

ـ مـن أنـا؟!

ـ أنت أنت ريحانة.

وتخترق الرجة جدران المنحدر الغربي:

ـ هدف أخر هدف أخـر.

وبين أصابعك المخضّبة يتسرب القماش طواعية، ويغزو شفتيك ارتباك مولّد:

ـ أنــت.

وعاودك المحقق الذي كان يحرص زينتك:

ـ اسمـك سيـدتـي.

ذات ليلة تذكرين، التمح قرطك الذهبي الضائع، رآه يتدلى من أذن جارية بجناح الحريم، فطلب إليك حق البشارة وهو يقبّل الأرض بين يديك:

ـ قرط الأميـرة!

ـ وتعرف أقراطي أيضا؟ أنت وفيّ إذن.

ـ هـو لـك.

أضفتِ، فقـال فرحـا:

ـ كلـه يا سيـدتي؟!

وهاجمت شفتاه يدك المدودة في استرخاء ليقبّلها، فتعوذت.

قلـت لـه كما لو أنك تحاولين التأكد:

ـ تسألنــي أنـا؟!

ـ وهل بالجناح غيرك؟!

ـ وعن اسمــي؟

ـ وعن اسمــك.

وقذفت بأحرف متفرقة مسئومـة:

ـ أ ر و ى.

وحتى لا ينساه كتب الاسم على استعجال.

ـ أنواع الأحلام التي تنتابك؟

ـ في حالة النوم أم اليقظـة؟

ـ هما معـا.

تنفرج شفتاك، والنطق يوغل في ردة مفاجئة، ينتزعك الدوار، يسترجعك النظر إلى ملامح الصيرفي المعتمد، فتنكسر النظرة، ويلحن المحقق في السؤال، فيناوبه رفيقه حراسة الشرود، فيبتسم فـي فـراغ:

ـ نحن ننتظر الإجابة يا سيـدتي.

ـ سؤالك لا يعنينـــي.

وقفز زميل المحقق كما لو أنه يبسّط السؤال:

ـ صلتك بالبَعد مثلا، ما لون هذا الذي تبشرين به؟

ـ تعرف من سبقني إلى التبشير بـه.

ـ مـن تعنين؟

ـ جابرا وأبا الخطاب ويحي بن يحي،

وربما قلت أخرين ولو على طريقتهم.

ـ سجلماسة أقيمت باسم البَعد يا سيـدة.

وتضاحكـت:

ـ بغداد ذاتها أقيمت بعنـوانه ولكن.

وكاد يقاطعك زميل المحقق:

ـ صلتك بتهارت معروفة، أما صحة صلتك بالقيروان،

فاعتقد أنها تقوم على عنصر "قابلتك"؟

ـ أنا تهارتية المولد أيها المحقق، وقابلتي تهارتية.

وتدخل المحقق ذاته:

ـ تحرياتنا تثبت أنها قيروانية الإقامة.

ـ قد تغير إقامتها.

وساخرا أردف:

ـ لم يقم فرق إذن بين تهارت والقيروان في نظرك؟

ـ وكان ينبغي ألا يقوم شبيه به، بين تهارت وسجلماسة لولا.

ـ لولا ماذا؟! لولا أطماع تهارت؟ أنت محقة.

وانكفأتِ إلى الوراء وكأنك تخاطبين باطنيتك:

ـ الصلة طور، والطور مذهب، والمذهب لمس، واللمس حضور، والحضور شبهة.

ـ ماذا تعنين؟

ـ أعني أنني لا أعني شيئا.

حين يفقد السؤال أحقية الموجب، عليك أن تتذرعي بالسالب، القابل للقولبة كيفما اتفق، وأن تفضي بنعوت المنقرض في مناخات البوار غير المؤكسد.

ترامقين المحقق نظرا يتحفز للإجفال، ومن مقبض شفتيك تنفلت ضحكة مبسترة، رافضة للتآويل المسبقة، بامبارا قال لك قبيل إبعاده إلى الضواحي:

ـ مظاهر الصخرة أخذت تتلحى، لتفقد الأسماء المنقوشة قوة التصريح.

وقذف المحقق بفضلة سؤاله:

ـ ألم تستجدي سلاحا من أبي الأفلح قبل وفاته؟

ـ شدني فيكَ اهتمامك بالبَعد ولكن.

ـ من عادة الأوهام أن تشكل مدخلا فحسب يا أروى.

ـ البَعد وهم؟!

ـ وهم القرن الثاني وكل القرون التي تليه.

وكعادتك عصفت بك زفرة قوية، وأنت تتمتمين بينك وبين نفسك:""" القَبل والبَعد بُعدان نقيضان، اكتشفهما يزيد بن عبد الملك بن مروان، في أول خطاب له إلى ولاته، حين كتب لهم:((أما بعد فقد مات عمر، فعودوا الى ما كنتم عليه قبل عمر)) وبكيت المعلم الثاني، عمر بن عبد العزيز، لكن في سرك دائما."""(4)

(4) هذه الفقرة ـ بالخط المغاير ــ أضيفت إلى النص أثناء إعداد مشروع الطبعة الثانية،

ومغنطك ارتياب قوي في أقواله، سجلماسة هل تختزن نظرات بعدية، كاتمة الإيمان كقرطبة؟ كتهارت؟ كالقيروان ذاتها؟ كبغداد؟ كبزنطة؟ والمحقق هل يتجاهل البَعد كما تجاهل اسمك منذ حين؟! وفي نزق ترفضينه خاطبك مساعده:

ـ ننتظر الجواب لا نفتأ.

ـ ضد من استجدي السلاح؟

وأحال السؤال عنوة على المحقق ذاته:

ـ ضد أمن سجلماسة طبعا.

ـ وهل في برقيتي ما يشير إلى سجلماسة؟

ـ كلا ولكنك أعطيت العدو واقع صراع داخلي.

وتأوهت في إشفاق:

ـ تقول العدو؟!!!

ولفّك الصمت وأنت تستردين مشهد القمم الغائرة التجاويف، وسلالم المقاعد الموشاة بأنياب زواحف منتصحة بالحمّية، وأثار امتقاعك حقد المحقق، وقلت كما لو أنك تقنعين نفسك:

ـ من لا يحمل رؤاك هو بالضرورة عدوك.

لمَ تذكرين بالذات موسم التشبيب المركّز، وأشعار "موسى الهادي" قبل الفتنة الصغرى؟ وفتاة العناقيد اللزجة الملمس في نهايات الشريط الرافض للتجنس؟

ـ الامتناع عن الإجابة إجابة.

انصرف المحققان، وزارتك سكرتيرتك الأرمنية "نداء القلوب، فأخذت تنادي هامسة:

ـ مولاتي. سيدتي.

ـ أمّه ماذا يا نداء؟ ماذا؟

وتراجعت إلى الوراء وهي تقول:

ـ أه، معذرة لم أكن أعرف أنك نائمة.

وصدرت عنك ضحكة مفاجئة وأنت تقولين:

ـــ اقتربي يا نداء، كان حلما مخيفا وخرافيا.

ثم قصصتِ عليها رؤيا المحققين فضحكتما معا(5)

وانصرفت الأرمينية تشكو لحظة استنطاق الأثداء الدافئة، وصليل الأكواب الحاملة للأبعد، وافتضاض وصاة "بامبارا" قبل القدوم، وتفاسير الحياد في برقية الاعتذار الكبرى.

تستفهمينها عن "ميمون" فينتفض الحكيم قبل إتمام التشخيص، ويعاودك هذيان الصباح، و المحقق يستأنف رحلة النكهة في خيالك، وقبالة النفق تنتض "تقية" خنجرها في وجه المحامي، فيطلّق التهميش من ليلتها، و يُدعى لحفل وداع عاشقين بالمراسلة.

أرملة "ميمون" صادفت تجهمك، فأبلغتك سلام "تقية" ورحيق دموعها، وناولتك كأسا من مستورد الألبان السودانية.

واختلى ابن المنتصر بقيّم البريد سرا، في خلوة مسائية قبل العصر، فقرأ عليه عناوين برقيات مراسليه الخواص:

" " قوات إلياس الوزير تغتال مروض الجياد. قف""

ـ ماذا؟ معارضة داخلية؟ أية بدعة!

" " إدريس الأصغر يسقط الثغر وينقل عاصمته إلى فاس. قف""

" " أبو سعيد التهارتي أعلن الطوارئ وقال بأصول

المعتزلة ولاء لبغداد والقيروان. قف""

" " الفاطمي يمهلك شهرا واحدا لتسليم المدينة، وقد عزلتَ كبير قضاتها. قف""

وقبل أن يتنهد، أذن ابن المنتصر لشاعرين بالمبارزة عاريين، وصفق بالخروج، وسأل " تقية":

ـ وإيرينـــا؟!

ـ تم إبعادها إلى "لسبوس" يا مولاي.

ـ لا أقصد.

ـ لكم تغزلت بغاراتك اللفظية على الرشيد.

وانفجر الأمير غاضبا:

ـ الفاطمي عدل عن وجهته إلى بزنطة، فأين يوجد؟!

ـ لا تقلق يا مولاي دع الأمر لي.

---

(5) الحلم، مما أضيف إلى الطبعة الثانية.

ودنـا منـها وقـال:

ـ أنصحينـي يـا جـدة.

ـ أخدم صدام الثغر التهارتي، هدّد ابن الأغلب، أكتب إلى فاس في شأن عبد الرحمن الثاني، هادن والي مصر مؤقتا.

ـ الأفلح يستهويه العمران أكثر من الحرب فيما يبدو؟

ـ نفسُ شاعر في جسد مصارع أطاح بباب المدينة أثناء غارة ما.

وفي انكفاء غريزي تنهدتْ لتضيف:

ـ يتغني بخضرة النخيل ويعشش في أيكه، يشحّم حظائر الدواب ويخاطب جناح أروى بلغة خاصة، يركبه وهم الفائت أحيانـا كعمتــه.

وقبل أن ينبس ابن المنتصر أردفت "تقية":

ـ وقد يبّشر بدك حصن درعاء حيث يعسكر المارق.

وقفـز الأميـر:

ـ حصن درعاء لإنقاذ ميمون المختطف من منفاه؟!

ـ بل ولعلاقة بإلياس الوزير المتمرد.

ـ تمرده مؤامرة تهارتية كما أشاع بن فندين هناك إذن؟!

وترنحت "تقية" على أعتاب الخلوة، وتشرّب ابن المنتصر نجواه الداخلي المحتدم.

ـ سينقـذه إذن؟!

ـ لاستغلال نقمة عامة.

ـ ويعتلينا ميمون ثانية.

ـ وتُطلق يده في الرأي مرة أخرى.

وتبسمت " تقية" وكأنـها تشجّعه:

ـ وخنادق الليـل، والشاعـر الرسمي؟

ولمعت عيناها فأردفت دون تثاقل:

ـ استصدر بمروقه فتوى.

ـ أه صحيـح.

ـ اخترق المرتبتين؟

ـ ارتطم بالكبيرة؟

ـ نادى بالمنتظر؟ توهم بَعدا؟

ـ امتدح الفاطمي جهـرة؟

ـ صنّف وراثة الخلافة ضمن علامات الساعة؟

وفكر ابن المنتصـر في قوات التنفس البطئي، وغادرت "تقية" جناحه صـوب أرملة ميمون لتسـألها:

ـ وأروى؟!

ـ مـريضـة يامولاتي.

أروى، تتناومين، يجلّلك دافئ العرق، بباطنك تبحر سفن الآلام، وكائنات نصف أموات تستشعرينها، على عينيك الواسعتين يرتسم أزرقاق متوثب يوميء بالدكنة والتلاشي، والنفس يمرر أنشداها مترويا.

نداء القلوب أقبلت تتجسس في وجنتيك شحوبا، يعتصر الدافق، وشعرك يمعن في الهرب نحو الخلف بالفطرة، وعلى محياك دمعة تعتزل النفير.

ـ كاتبي أبا سعيد الافلح في شأن ميمون يانداء القلـوب. وتـاوهت الارمينيـة

ـ سيـدتي مـا بـك؟!

وبعنف لطمـت الأرمينية خـديهـا:

ـ عـرق وهـذيـان؟!

تصـدّر القـاضي بوابة الجنـاح، وانتـظر فرقة لتحية العلم، وأومأت "تقية" للحكيم بالجلوس، أنين أروى يحـادث أطيـافا تتضـور، مفتـوحة الأجنحـة على أفق بعيد، وهامست بعض من حضـر:

ـ نداء القلوب، أرى أربعا يمتشقن سيوفا لامعة.

وأسرعت " تقية" إلى أذن القاضي:

ـ إنها تهذي إذن.

وانصرفوا لإشعار الأمير ابن المنتصر، فتبللت عينا أروى وهي تقول في إعياء:

ـ أ كتُمي الأمر يا نداء القلوب.

وحاصرتها عيناها في حيرة:

ـ أيّ أمر؟

ـ أمر مرضي.

وايجابا هزّت رأسها:

ـ لن أطيعك هذه المرة.

ـ لاتصيري بسوسا ثانية بين القبيلتين.

وقبل أن تتم فوجئت نداء القلوب:

ـ حسبتك أكثر دهاء من "تقية" يا معلمتي.

وتنهدتا، وقالت:

ـ ظننت دائما أن الدعوة أنفذ من العِرْق يا نداء.

ـ وهذا ما أعتقد بدوري يا مولاتي.

ـ كل الدعوات تضمحل أمام الحميّة يا نداء.

وأُغمي على أروى فامتعضت السكرتيرة، ودلف البوابة، "تقية" والقاضي، وفصيلة من الأطباء بزيهم الرسمي تباعا.

ـ أرى أربعا، أرى أربعا.

ودنا القاضي منها وهو يديم النظر إلى " تقية" في شبه إجفال مكتوم:

ـ ومن هنّ يا أروى؟!

أمنعت التحديق في لحية القاضي، كان يبدو أسن من حقيقته في نظرها، وأحسنت استقراء الأوجه الظليلة يلفحها الحلم وتمتمت:

ـ أرى أربعا.

ـ أين هن؟

سألت " تقية".

ـ من تهارت قدمن.

ـ من هن؟

وغيرت شكل انحناءة رأسها وغمرها عرق، وتلمظت، وانزاحت نظراتها نحو نداء القلوب:

""الأولى تتقدم مني الآن، خاتمة الصياح في ليالي الجلبة الكبرى، وآثار النسغ في تناهي الأودية الغاضبة بالوراثة، علّة الدفء حين يلتهم الصقيع المطحلب منافذ الساح الكاتمة للصوت""

"" الثانية عربون الطلاق الثالث، وثغرة جسر مفض للبسمة، شرخ يتكهل قبل انبجاس الأثداء، تجهل النهايات المفتوحة، توصي بأوراقها زميلا غمغم في استياء، في لون نبضاتها، يتماتن الشاعران صدفة ""

"" والثالثة ركبت السحاب ـ أنظروا ـ لترسم لأطفالها حقيقة الخارطة المسجاة، وخارج الجاذبية ناغت قتلى الدير، فبكاها صبية عديمو الانتماء، لاحقت جدران الصوت في رحلة صيد مكهربة""

" ظلت فتاتي هذه خارج التعاريف المُدمَغة، وداخل الاعترافات تستلقي على مهد صغير الرضع".

لملمت أروى جفنيها وحاصرها غثيان حبلى، وعكست ملامحها حدّة تذمر، وراعها انشداه نداء القلوب التي اندفعت إلى القول:

ـ والرابعـــة؟!

ورامقها القاضي كما لو أنه شك في سلامة عقلها هي الأخرى، وشاحبا شبه وهن، اندفع صوت أروى ليقاطع الصمت الرصاصي الثقيل:

" والرابعة، حين اكتشفت النار في العصر الجليدي الأول، استقال نادل الوجبات المباشرة، وتشاجرت الكواكب حول ملهاة الفعل، وتحت خال نهديها حيث ينبت الجرح، تجانست بنود وصلبان وأدعية. عاشقة هي بقلب أخر تتذوق رضاب النزيف السائح، عبر زبد الأنين المهرق خلف أسوار مدينة النذر، وبعد الغرق تعاودها نوبات جنون فطري، ويبتلع الليل السابع خطاها. "

وأطفأ التوعك الكلام حين سقط زاجل بري مرقم يحمل أخر البرقيات:

ـ محمد بن سعيد في طريقه الى سجلماسة يا مولاي.

ـ حاجب قرطبة وأرفع قواد جيوشها؟!

ـ أجل وسيدخل المدينة في زي مدني أبيض رافض للتأويل يا مولاي.

وتنبأت "تقية":

ـ جاء مفاوضا في شأن من لجأوا إلينا.

ـ افتقدت قرطبة ثقتها بإدريس الثاني إذن؟

وتحرّك القاضي:

ـ لها شكوك في تعاونه مع بعض الناقمين عليها ممن فرّوا منها.

وقال ابن المنتصر:

ـ سجلماسة في نظر قرطبة ليست "فاس" على أي حال.

وأكمل كبير المخبرين المد نيين:

ـ رغم الفارق المذهبي تظل سجلماسة وتهارت أقرب

مواقع الدفء إلى قرطبة.

لم تمتنع المدفعية عن الترحيب كما توقع كبير مراسلي "أكس لاشابال" غير أن بعض متبقيات صور إدريس الثاني قد احتجزت عبر متاجر الشارع المديد، الريح تذيع خطى غير متجانسة، والمكان يغربن الموعد، والحرس السجلماسي يتشمم الحذر في أثواب الهدنة، أما حملة النبال فتزاحموا مشكلين شبه فواصل جنائزية، وأعلن المنادي العام عن غلق أخر الأبواب الخلفية من باب الحيطة.

("") ("") ("")

وقال المؤرخ الأصلع موجها لومه إلى المدّاح:

ـ عن أية مدفعية تتحدث؟! وعن أية صور؟!

ـ عن هذه، وعن هذه.

وأشار إلى خيزرانه، وإلى ورقة نقدية ظل محتفظا بها في يده، فعمّ الضحك جموع الصفوف الأولى، وتهادى بالتناوب إلى غاية الصف الأخير، أين نبر كهل فضّل الجلوس بمنتهى الحلقة:

ـ وميمون أيها المدّاح؟

ـ أسقط البرلمان ذكراه بالتقادم يا أخي.

ـ وأروى؟

ـ دع السؤال لمحمد بن سعيد التهارتي.

قفز الكهل مستغربا:

ـ التهارتي؟! ألم تقل إنه آت من قرطبة؟!

وإنه حاجبها وقائد قواتها المسلحة؟!

ـ بلى.

ـ وإذن.

وانتهر الجمع الرجل الكهل. واعتلى صوت المؤرخ الأصلع بقية الأصوات:

ـ أليس في الإمكان أن ننتظر سويا؟ أم أن العجلة

قد ركبتنا في كل شيء؟

و أقرّ المدّاح الأصلع على منطقه، فأغلق القوس بإشارة من عصاه المنحنية.

("") ("") ("")

وترحما على مدرار الجد وقفت " تقية" صامتة، وقبيل انصراف محمد بن سعيد إلى جناح " أروى " ردّد قوله دون أن يتمكن من التقاطه مراسلون، غير معتمدين كانوا قريبا من الموكب:

ـ هي رابطة الجسر، هي رابطة الجسر.

خبّ جواد ابن سعيد تفرقع حوافره أنصاف الحصى، ومراسل "أكس لاشابال" يحتسي عصيرا مسائيا ، ويحادث شخصا متنكرا بلغـة أخرى:

ـ لقـاء حول اللاجئين الأندلسيين.

ـ شـوط أول.

ـ ارتجـاج. قـف، حـوّل.

وقال المراسل لجليسه المتنكر:

ـ لا تنس أن محادثة المهدي العباسي مع العاهل شارلمان

تناولت الشأن الأموي في الأندلـس.

ـ أعرف، وشارلمان طلب إخضاع بزنطة، ليسود باسم الصليب دونـها.

ـ ثم كلّم الحكم بن هشام الأندلسي في شأن الأدارسة.

تلمس محمد بن سعيد منعطف الجناح، خلف فواصل حملة النبال، والتناهد المستنفذة توغل في التراخي، منحنيات الإعصار تلاحق البسمة في أحراش التجني الفاتح الألوان.

ـ لـمَ تمتشقن سيوفكن وقد تخضّبت مدن النـذر

بعطور الوافدين من أحشاء الظـلام حيارى؟!

ـ أروى؟

ممدّدة كانت تنزف خاثر العرق، وتهذي، حين ناداها حارس الجناح بعد أن تلقى إشارة ضوئيـة:

ـ سيدتـي أروى لقد وفد الأمير محمد بن سعيـد.

وقالت أروى وكأنـها لم تسمع شيئا، أوهي ترفض السماع على الإطلاق:

ـ نداء القلوب هل تنكر "الراسبي" لرؤاه زمن الرؤى؟!

وردد الحارس وقد تلقى إشارة ضوئية ثانية:

ـ سيدتـي، محمد بن سعيد في طريقه إلى جناحك.

وتلمست كتف الأمير حين جلس إلى جانبها، وقد ظنته إدريس الثاني أمير فاس:

ـ لكأني بك تخاطبني بدون ستار عكس عادتك؟!

وأربكه السؤال، فتراجع ببصره نحو ابن المنتصر الذي فضل اعتزال الحديث فيما يبدو، وأردفت أروى:

ـ ألأنك أقلعت عن محادثة زوارك من وراء ستار أصلا؟

وضحك مجاراة لها وقال كما لو أنه إدريس الثاني بحق:

ـ دأبا ألفناه منذ تسميم والدنا الأكبر على يدي جواسيس الرشيد.

وزفرت في ضيق وقد أشاحت بعينيها المغمضّتين عنه:

ـ بل كان دأبا منذ أيام عمرو بن هند، وتطاحن القصائد وسيظل يا أمير فاس.

وقال ابن المنتصر:

ـ كانت مؤامرة بغدادية أودت بحياة إدريس الأكبر يا أروى.

وبك استبد هذيانك المرّكز:"" الستار قَبل مكرور، في "الحيرة" أوجده برص الشاعر ابن حلّيزة، و في "فاس" تقيّأه السمُّ، وفيهما معا قتله الشعر، ثم بعيدا منه أينع، بالبصرة أثاره الزنج، وبقرطبة طاله هدير الفقهاء، وفي أحايين معاوية الأول أربك الستار أباذر قبل إبعاده، والستار ألقى بجابر بن زيد في منفاه "بعُمان" والسم كان سر الأغلبي في تصفية راشد الزيدي، وبلغة حميمية قلت له:

ـ مرحبا بك عندنا يا أمير إدريس، سرّني مجيئك إلينا.

وكاد يبتسم الامير ابن المنتصر لولا أن محمدا بن سعيد سارع:

ـ عمتي، إنما أنا محمد بن سعيد ولست بالأمير إدريس الثاني.

وتمعنت فيك أكثر وقالت وقد استسلمت شفتاها لبسمة قارة:

ـ محمد؟ أديب قرطبة؟

وتضاحكتْ:

ـ زوج ابنـة زرياب الموسيقـار؟!

وتمتم، ومنعطف الحديث قد أسر ابن المنتصر.

ـ هو ذا بين يديك يا عمـة.

ـ أدري أن أباك قد استهجن الزهد في أجواء

تهارت، فهاجر إلى حور قرطبة.

بن سعيد يركز النظر إلى عمة الأب، روى، كيف تهاوى قطبها بسرعة كالذي يري؟ ألمجرد أن يفتقد ميمون العرش تفتقد أروى الحياة؟! هل تنتهي الحياة إذا ما افتقدت أحد عناوينها؟! م لها عنوان واحد فحسب؟

ـ عمتي؟ ما كل هذا الذي تعانين، أيكما يعيش

ملحمة ميمون؟ أنت أم هو؟

وتحركت في سريرها، وكأن الاعتقاد غير مشترك وقـالت:

ـ إنما أنا ملحمة بَعد تقضّى يا محمد.

وارتاب بصـدق:

ـ بـَعد؟ وتقضـى؟ وكيـف؟

وقـال فقيــه سلجمـاسة:

ـ لوكان في وسعي أن أقول بالتناسخ لاكشفـت

أن "جـابرا" قد عاود الحياة ثانية من خلال أروى.

وقـالت أروى:

ـ ولكنه "جـابر" سـالب هذه المرة يـا أبتـاه، قصاراه

أن يشـاهد فحسب.

وحين ذكّرها ابن سعيد بقولـه:

ـ ميناس حمّلني تحية حين زرته لأخر مرة.

ـ وأبو الخطاب، والحبشي وتاجر الأدغال "الغاني"،

وقوافل الجنوب، وعمران وابن حكيم، وبامبارا؟

وأبدى جهله الصادق بمعظم هذه الأسماء، إلا الحبشي الذي تذكر أنه رآه بمعية الفقيه يحي بن يحي أكثر من مرة، فأعفته أروى من حدة السؤال بقولها:

ـ قرنفلة تعالي يا فتاة الحديقة، حدّ ثيني عن رجّة الأماسي،

وأناشيد السكارى، وجنون الأوصدة، ومقصلة الغلام.

وقالت قرنفلة:

ـ سيدتي.

وواصلت أروى في عياء هذه المرة:

ـ فليُنقل جثماني إلى شجرة ميناس، إلى أصغر

أشجار السفرجل فيه.

وارتمت قريبا منها نداء القلوب باكية:

ـ لن تموتي ياحبيبة الجميع.

ورصدتها أروى بنظرة فاحصة"

ـ الجميع؟ أمتأكدة أنت من ذلك ياندا؟!

وندت شفتها عن بسمة وهنة:

ـ حبيبتهم بدون إذن مني؟ صحيح صحيح،

وحده الحب لايطلب الإذن من أحد، هو ذا ما رفض القول به مدرار.

عن شيئ ما تتطلعين، وارجاعات حدقاتك ترسم مشهدا مبتدعا، تستجمعين ضحكات متفرقة تنبعث من حلقات الصبايا المتأبطات جرارهن الطينية، في سخاء يوزعن على الأطفال سيرهن الذاتية، ويرفضنّ إقامة نصب رخامية على بوابة المقابر المجهولة.

خلف كوكبة الجرار المخضّبة بالوحل وأتربة التحنيط، سابحة يصدمك التظني، إلى أوراقهن اليومية أسمرت نظرك، خالية من الكتابة كانت، عكس رؤاهن الصغيرة، وأقلام التلوين تتلمس دمعة تعتصرها عين لم تعد ساحرة، وزغرودة تشقّ فؤاد النبع خارج الجناح.

وتطلع عريف الحرس وفتاته " قرنفلة" صوب الجناح، حيث أذهلهما الحشد المتنامي على غير دأب:

ـ لقد أثبتت أروى بمرضها أنها عاشقة؟

وأضاف:

ـ هو ذا العشق الحقيقي يا قرنفلة.

ـ وعشقي؟

ـ موسمي بالتجربة.

وقبل أن تبدي قرنفلة غضبتها، أشار ابن المنتصر من داخل الجناح بإخراج أروى فرفضت:

ـ سأموت في موقع الرؤى يا أمير.

ـ ومن عساه يسمح بذّلك يا أروى؟

قالت "تقية" والتقت نظرتاهما لتدرك أروى أن "تقية" باكية بصدق، فقالت أروى في تثاقل:

ـ أعرف أن ما بداخلك ظل شريفا، شأنك شأن مدرار و

وصارح الطبيب بعجزه عن كشف علتها، فقدمت الأرمينية " نداء" نفسها إلى الأمير و استأذنت في إصغائه على انفراد، فلم يأمر القاضي بتفتيشها من جديد تحسبا لأي محتمل كعادته، وقالت للأمير:

ـ إنها في حاجة إلى منجم.

ـ من تعنين؟

ـ أروى.

ـ منجم؟

ودنا منها ليهامسها:

ـ وهل يتجاوز المنجم دراية الطبيب؟

وأكفهر لونها المتوهج فتلعثمت، وما أن انصرفت حتى أصدر أمرا صغير الحجم باستنطاقها تأدبا، على ذمة الإصغاء البَعدي، ودون أن يفغر فاه لمشهد الأمير ونداء القلوب على انفراد، حملق الطبيب في وجه "تقية" التي اختفت مسرعة، وقالت نداء القلوب لحارسها في أسف:

ـ وهل يمكن للمنجم أن يحدّد علة مرضها؟

وجاء القيّم حاملا بريد المساء، وقبّل الأرض بين يدي الأمير، كانت أولى البرقيات لا تزال أحرفها سائلة:

((قد يعود العبيديون إلى سجلماسة يوما ما،

فرجيوة تتأ هب)).

وهامس ابن المنتصر قائد الجيوش الأربعة:

ـ اِحذروا فقط العمليات المفاجئة.

وقدّم كبير المخبرين محصّلة استقرائه في وثائق الفاطمي، فسأله ابن المنتصر:

ـ صفه لي.

ـ إنه لا ينتسب إلى كلماته، ويحسن الاعتصام بها في وقت الشدة.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنه كأي أمير أخر يا مولاي.

كان الذي يشغل بال أروى، أن تمّر بميناس في طريقها إلى الحج، وحين أفصحت عن رغبتها في تلعثم، زغردت " تقية " في سرها، وتقدمت من الأمير قائلة:

ـ سأرحل معها، لن أتخلف عن موكبها، فكلتانا فقدت وحيدها،

وكلتانا ثكلى بوجه أو بأخر.

وتحرك موكب أروى نحو ميناس، وخطيب الجمعة في مكان ما، يذيع أنتصارات المتمردين باسم ميمون المختطف، وسألت أروى قائد قافلتها:

ـ أين سينزل المهدي المنتظر؟

وتبادل الحراس نظرات حيرى، وسارع أحدهم إلى القول وقد ظنته الحبشي:

ـ إنها لا تفتأ تهذي.

وقال قائد القافلة غاضبا:

ـ تبشر بادعاءات الشيعة.

وسلبا هزت أروى رأسها:

ـ وحده سيقول بالبَعد، وحده سيقول بالبَعد،

وحده سيدعو بالعودة إلى جابر.

ـ من تعنين؟!

أجمعوا على سؤالها.

ـ لا أحد، لا أحد.

ومسحت " تقية" على جبين أروى، وهي لا تزال إلى جانبها باكية.

("") ("") ("")

ـ عشرة عشرة.

قاطع المدّاح موالـه لخلل في الناي، وانصرف الدفّاف دون أن يحدد وجهته، ولا موعد عودته إلى الحلقة، وتقدم الطالب صاحب المحفظة من المدّاح ليسأله:

ـ وأين دُفنت أروى يا عم؟!

ـ لا تزال على فراش المرض يا بني.

(*)هذه النسخة أعدت كمشروع لطبعة ثانية وهي منقحة، ومزيدة في حدود ما همّشنا له بالأرقام طبعا .

(هذه الرواية مودعة لدى الديوان الوطني لحقوق الملف والحقوق المجاورة بالجزائر)